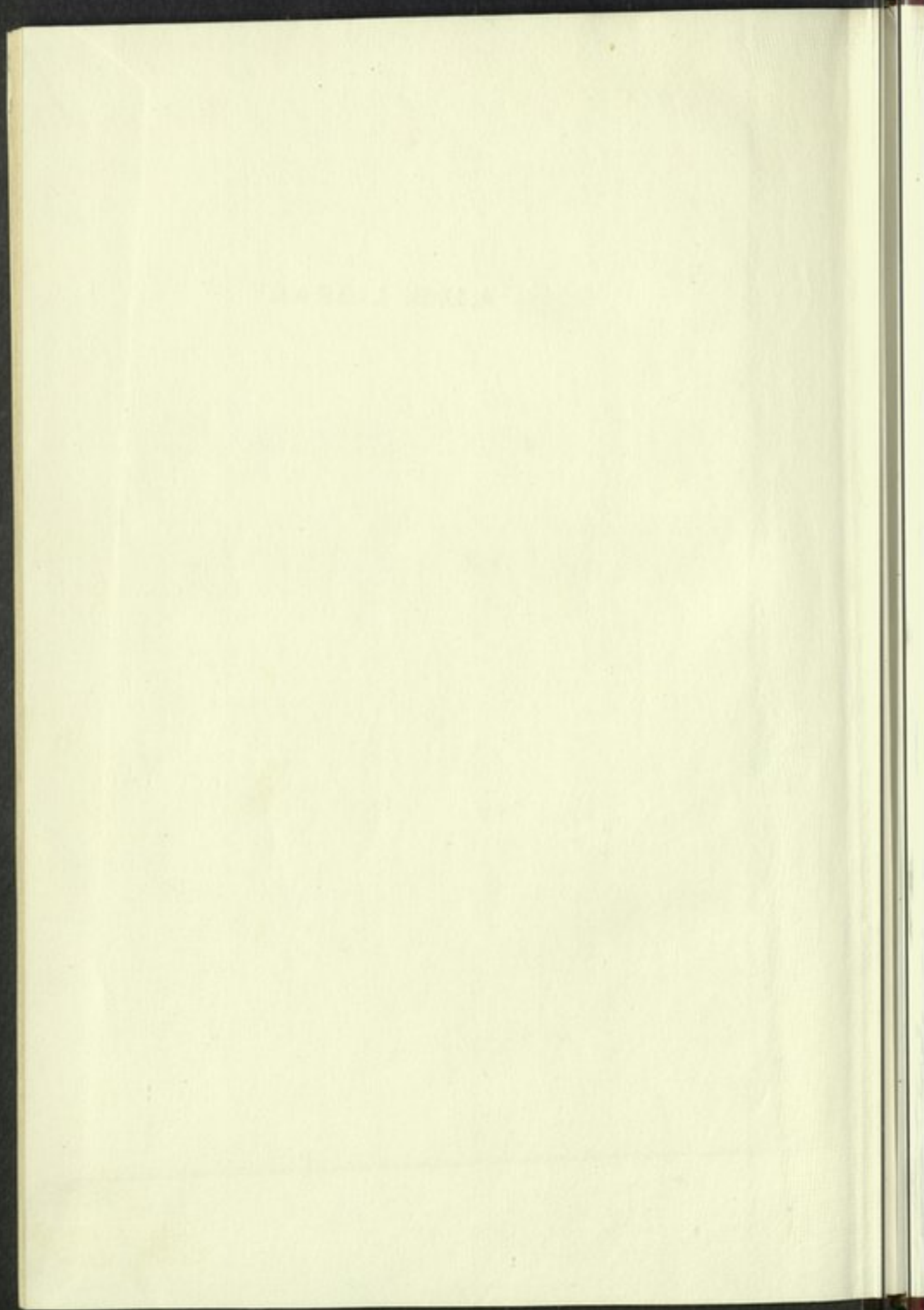
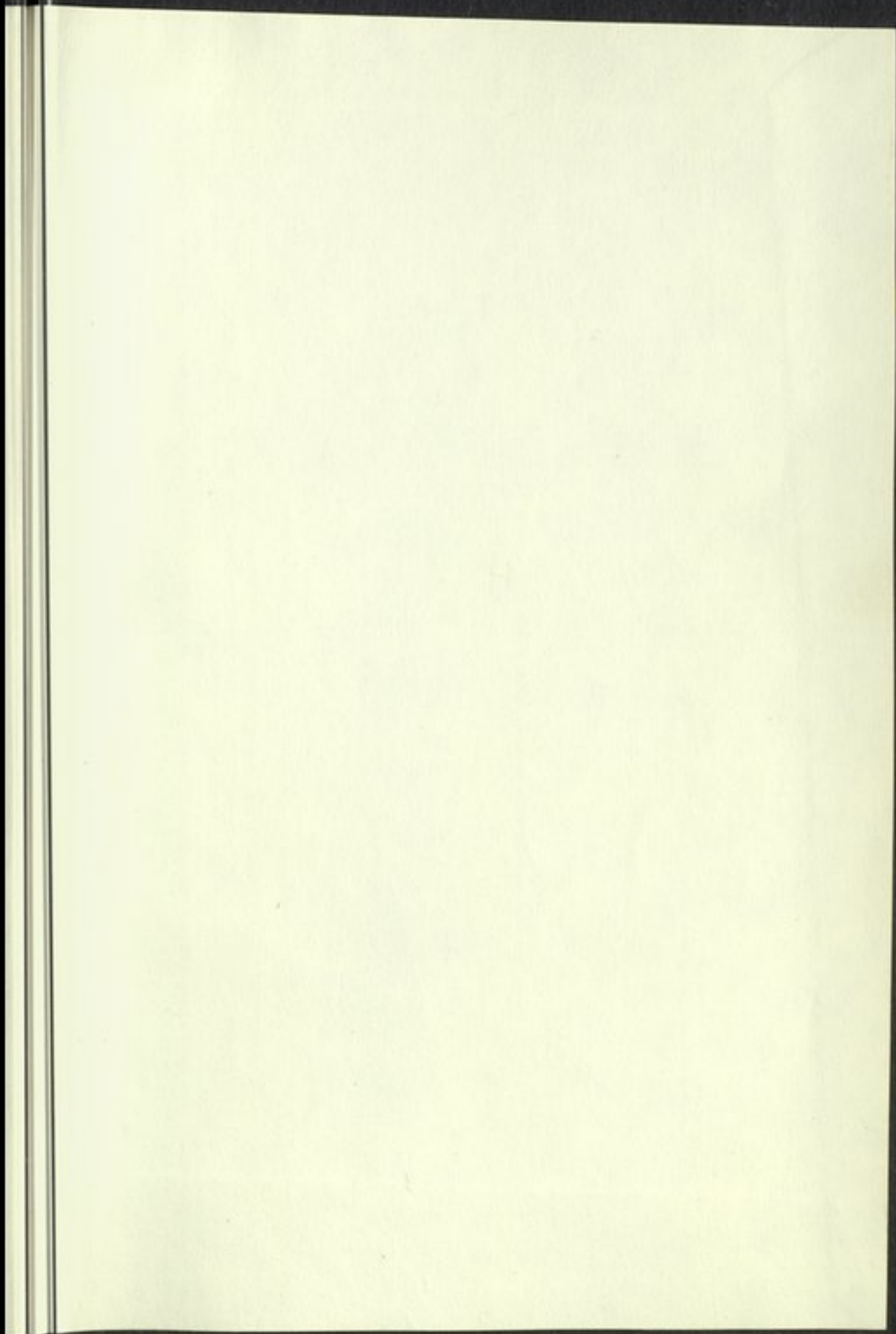
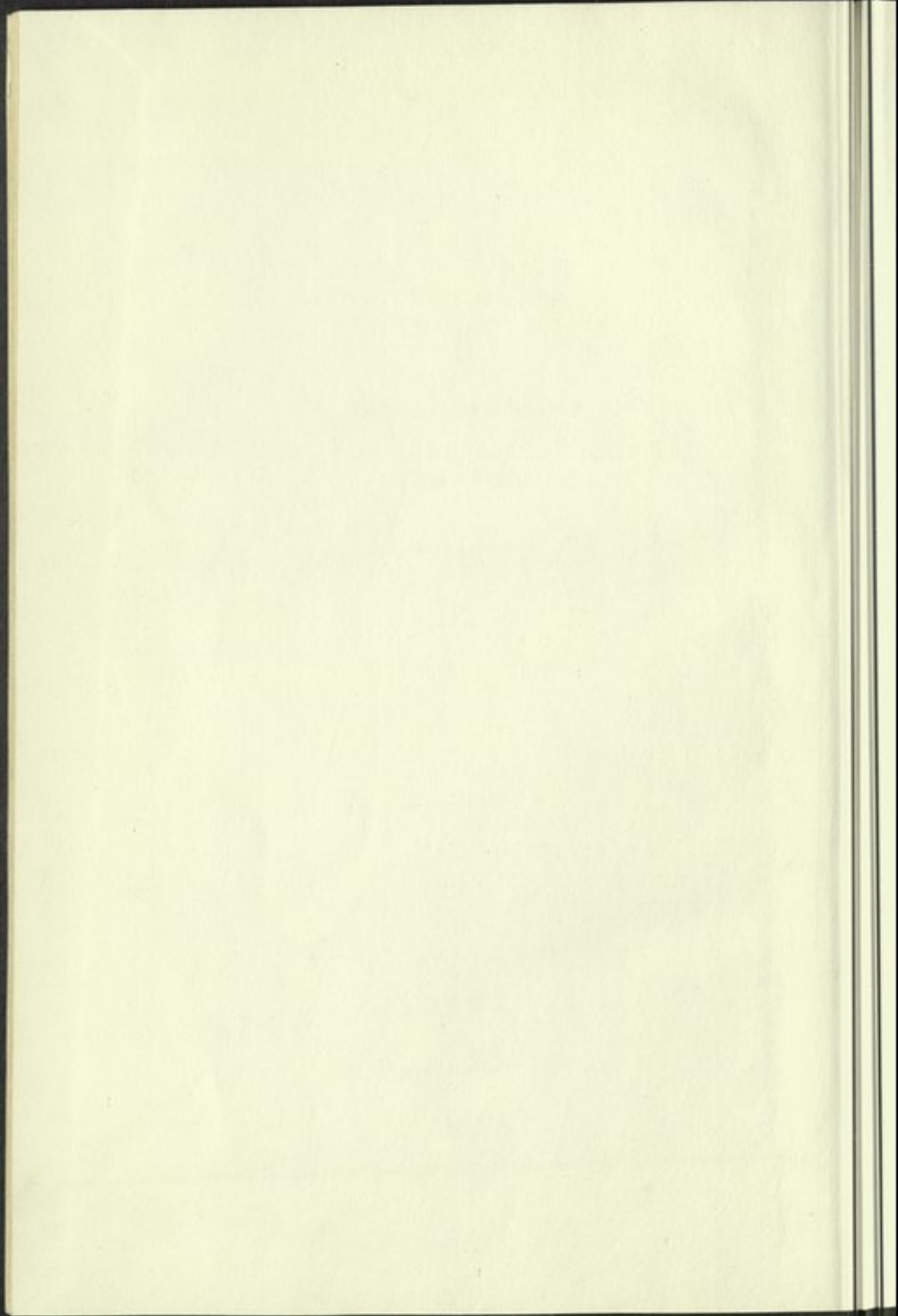
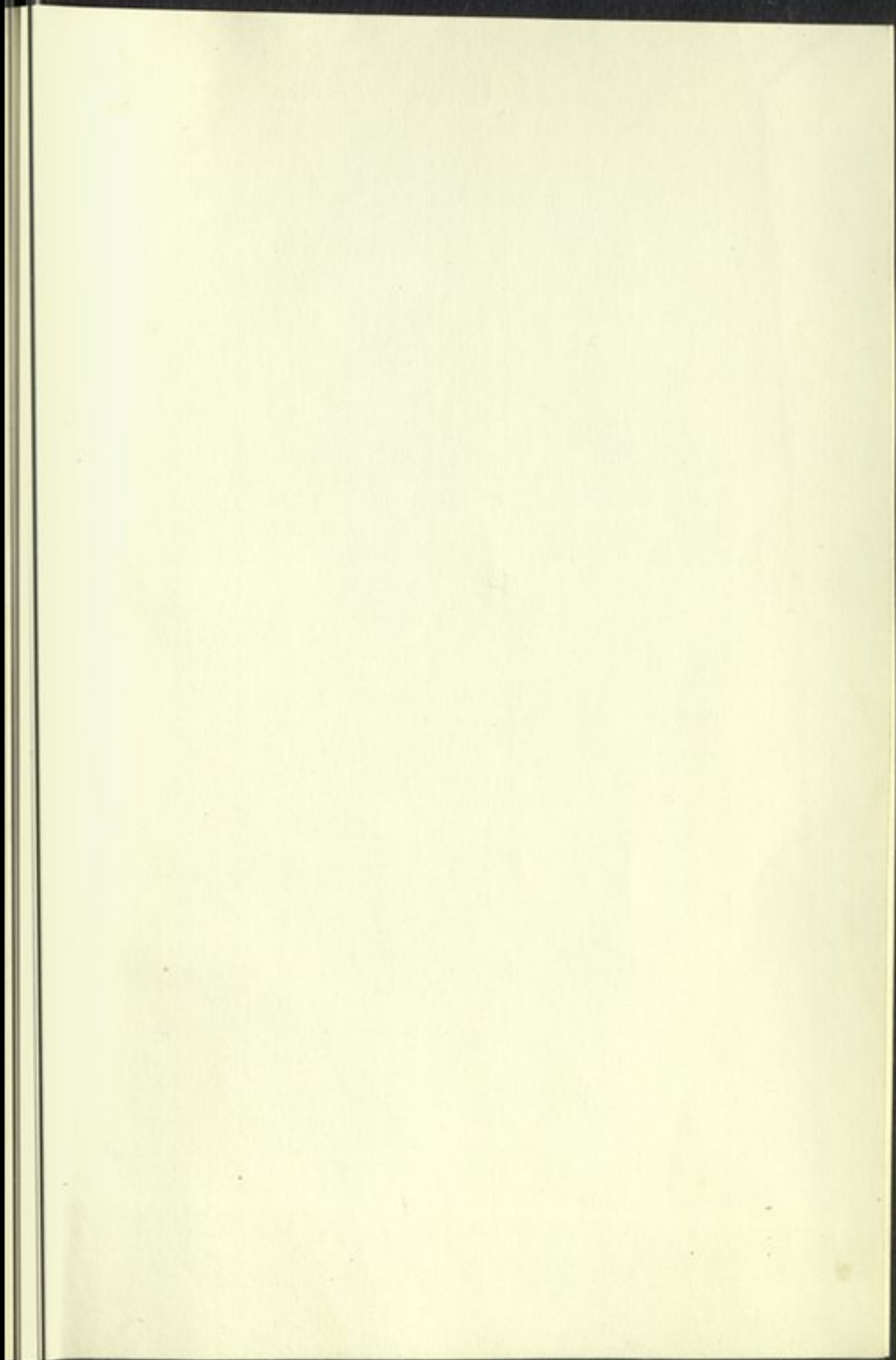


A. U. B. LIBRARY









تقدمة

مضرة صاحب السعادة اسمعربا سبيلي باسما

الى ذكرى

الركنور يعقوب صروف

57558

هجرة المقتطف السنوية

١٩٣٨

21228

1771

B

A13E

923.146

A147s A



صَفْرُ قُرَيْشٍ

دِرَاسَةٌ لِحَيَاةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوَّلِ
الْمَلْفَقِ بِالْبَدْعِ مَوْسَسِ الدَّوْلَةِ الْأَمَوِيَّةِ بِالْبُلْدَيْنِ



57558

عبد الله بن أحمد



فصل في معرفة
الجمهورية
التي هي
التي هي

٥٢٣

طبعة المقتطف والمقطوع

بمصر سنة ١٩٣٨

المدخل

عبد الرحمن الداخل — صقر قریش كما لقبه معاصره العظيم ابو جعفر المنصور —
ومؤسس أكبر دولة اسلامية عرفتها اسبانيا احد ابطال التاريخ وشخصية حافلة حجة
النواحي ، تسترعي النظر وتثير الاعجاب. وقد مرَّ بهذه الدنيا كزائر غريب الشأن مقبل
من العوالم الخفية يخرج من الفوضى نظاماً ويخلق من الضعف قوة ، وقد حاولت في
هذه الرسالة أن استقصي اخباره واكتب قصة حياته السرية العامرة ، ومهدت لذلك
بإقامة عن تاريخ الاندلس واحوالها قبل دخوله لبيان طبيعة الموقف الذي واجهه
عبد الرحمن عند مجيئه اليها ، وقد اجتهدت ان لانكون الشخوص البادية في هذه الفصـة
العجيبة تماثيل جامدة منحوتة من صخرة الرذيلة ، او مقدودة من مرمر الفضيلة ، وعملت
على ان أظهر فرديتهم في ظلالها المختلفة ونواحيها المتعددة وان أبين الدوافع التي كانت
تضطرب في نفوسهم وتحركهم ، والاهداف التي كانوا يرمون اليها ، واستعنت على ذلك
بذكر لمع من سيرهم وتلويحات من اخبارهم ، وحاولت ان أصور عبد الرحمن في
شجاعته وقسوته ودهائه ورقته وحزمه ، وان أنف من مختلف الاشخاص موقف

الجيدة والتجرد لاعتقادي ان العبادة العمياء او الكراهة الصماء تشوه التصوير وتحيل
الفهم ، ولم أبح لنفسي الاسترسال مع الخيال والنوم لاني لا أرى ضرورة لان استغرق
في الاحلام في وضع النهار ، وان كنت قد وسعت على نفسي بمض التوسعة في مواقف
قليلة اقتضت ذلك ، ولم أعد في تفسير الاشخاص الحقائق التاريخية الواردة في مختلف
المصادر التي رجعت اليها ، ولست أدعي بعد ذلك انني قد استوليت على الامل وانتهيت
الى الحق التاريخي ، وعندني ان الحق التاريخي مثل الحكمة المنشودة لا يسوغ لانسان
راجع الفكر أن يدعي حيازتها وحماها ان يشعر قلبه جيبها والاخلاص في طلبها ،
وغاية ما أقول انني حرصت على الحق التاريخي وحاولت ان اسمو به فوق كل اعتبار
وان كنت لا أزعم اني كشفت سره وملكت عنانه وليس من المستبعد — بل المأمول
والمرقوب — ان يظهر ما قد يستجد من البحوث التاريخية عبد الرحمن في صورة
مخالفة للصورة التي حاولت رسمها له ، على اني اعتقد ان مجهودي القليل ككل مجهود
في الحياة رائده حب الحقيقة لا يذهب سدًى وانما يكون لبنة في البناء الجديد ،
وخطوة الى تفسير آخر ، ولا أقول التفسير النهائي الاخير فما احسب حياة الانسان
القصيرة في هذه الدنيا الفانية تجيز لنا الامل في الوصول الى الحقائق النهائية ، وارجو
ان يجدد القراء متعة فكرية ورياضة اخلاقية في تتبع روائع اخبار عبد الرحمن وغرائب
همته . ومن بدري فقد تكون حياتنا العقلية والاخلاقية التي يزدهينا في كثير من الاحيان
ما بها من قوة وخصب لا تزال تعاني عقابيل ما انتابها من العلل في سالف الزمان، وقد
يكون بها بعض الحاجة الى قضاء ايام في استنشاق هواء الربى الحضرة والخيال الشم
والتدفؤ في اضواء الشمس الساطعة والحرارة اللافحة .

مِيقَاتُ البَطْوَلَةِ

الترقي في الطبيعة وفي التاريخ — أثر
الجماعة والامراد في الحركة التاريخية —
خضوع العظماء لعاطفة رئيسية

إذا تأملنا تاريخ الإنسانية في هذه الأرض — زورق الحياة الصغير الذي ينساب بنا في عيلم من اللانهايات جيش العباب يهول صمته ولا يسبر عمقه — وجدنا أن الحركة التاريخية السائرة من انبلاج فجر الحضارة تتجه إلى غاية مجهولة . وقد تكون تلك الغاية من فوق ، متناول الأفهام ومن وراء خطرات الأوهام . ولكننا نحس وجودها ونستشف أثرها من وراء فوضى الحوادث واختلاط الظواهر ، وحول إثبات تلك الغاية ونلمسها واستيضاحها أو إنكارها وطمس معالمها تدور أرحاء معارك فكرية بين المدارس المختلفة من المفكرين . هذه الغاية ملحوظة الأثر في الطبيعة فقد لحظ فلاسفة اليونان أن هناك ترقياً وتسلسلاً في الطبيعة ، وتوفر على شرح ذلك وإثباته دارون ومن جرى على سبيله من علماء العصر الحديث . وهذه الغاية أيضاً ظاهرة السمة في الحركة التاريخية يتم عنها ذلك التدرج المستمر والاتقال الدائم في النظم والأوضاع الاجتماعية ، وقد تصدق كثير من أعلام الفلاسفة لإثبات هذا الترقى الملموح في التاريخ وفي طبيعتهم « فيكو » و « هردر » و « هجل » ، والحق أن ترقى الإنسانية من نظام الفردية إلى نظام الأسرة فالقبيلة فالملكية ثم ظهور السلطة الدينية ومحجبي عهد القوات

الكبرى في المصور الحديثة يدل على ان هناك تدرجاً دائماً وراء تلك الاستحالات في
الايضاح الاجتماعية وان الحضارة تتجه الى غاية تشترك الامم المختلفة في سوق
جموع الانسانية اليها

واذا كانت الافكار هي المسيطرة في الدنيا وهي اللب والصميم لكل تلك التغيرات
الخارجية وهذا ما يدل عليه الاستقراء التاريخي فنحن خلفاء ان نستخلص من ذلك
ان كل دور من هذه الادوار التي مرت بها الانسانية كان نتيجة لظهور فكرة العصر
او روح العصر وهذه « الفكرة » تظهر في مستهل أمرها غامضة ملتبسة بحفها ضباب
من الغموض وتفر من المنطق والتحليل ، ثم تتجلى عنها سحب الغموض وتزول شيئاً
فشيئاً حتى تظهر الفكرة جلية واضحة ثم يدركها الغفاء والبلى فتذبل وتذوى وتقوم
على آثارها فكرة جديدة . فتاريخ الانسانية اذن سلسلة من الافكار التي توالت على
الدنيا وارتسمت في صفحة الحياة البشرية ، وأكثر معارك التاريخ وأيامه كانت لتغليب
فكرة من هذه الافكار على الاخرى

وتتخذ الفكرة لظهورها طريقين ، أحدهما الجماعات والآخر الافراد أبطال
التاريخ ، وهي تظهر في الجماعات بشكل دافع يستحثهم على الهجرة والانتقال مثل
رحلات قبائل البدو السامية من جوف شبه جزيرة العرب الى حوض دجلة والفرات
وظهور حضارة بابل وأشور نتيجة لذلك ، ومثل الغزوات الصليبية ومثل هجرة قبائل
المغول وتأثيرها العظيم في التاريخ. والذي يسوق الجماعات في تلك الاحوال هو الفرزة
التاريخية التي تدفعهم من حيث لا يشعرون وهم يحاولون أنفسهم متجهين الى غرضهم
الخاص المعلن ، وغرضهم الخاص هذا في الاعمال الاغلب قليل الشأن ضئيل الى جانب
الغرض الكبير الذي ترمي اليه الفرزة التاريخية وهذا الغرض لا ينكشف خفيه الا بعد زمن

والطريق الآخر لظهور الفكرة هو الايحاء الى الافراد الذين نسميهم أبطال التاريخ واتخاذهم رواداً للفكرة وطلائع لها ، وهم أشبه بالآلات في يد الفكرة ، يعملون على تحقيقها من خلال سعيهم الى بجدهم الشخصي ، وهم يؤدون للانسانية خدمات من وراء آفاق تفكيرهم نسوقهم الى النهوض بها الفريزة التاريخية التي تستغل قوة طموحهم لبلوغ ما ربهها ودراك غايتها كما تنتفع غريزة حفظ النوع من اذكاء عاطفة الحب وتبنيها وسيلة من وسائلها ، فالغريزة التاريخية تبتعث طموح العظيم لتحقيق الفكرة ، والغريزة النوعية تهيج عاطفة الحب لابقاء النوع ، فالعظيم والمحب كلاهما مخدوع مسوق الى تنفيذ غايات لا تبرز في ساحة تفكيره . كان الاسكندر مثلاً شغوفاً بالفتح وتدويح البلاد فجاء من أثر فتحه تزواج الحضارة اليونانية بالحضارة الفارسية وغيرها من الحضارات الشرقية ، وأراد قيصر ان يظهر براعته الحربية في ميدان من ميادين القتال تبيهاً لمسكاته وتحقيفاً لطموحه فأخذ يقحم على الغال مدنهم ولم يكن يدرك التأثيرات البعيدة لهذه الفتوحات وانه سيبدأ بها تاريخ اوربا الحديث ، ونا بليون لما ملأ العالم حروباً لمجده الشخصي كان اكبر موقظ ومحرك لمسألة القوميات ، وكذلك عبد الرحمن الداخل لما كان يجاهد لتسليم عرش الاندلس لم يكن يعلم انه سيكون احد المؤمنين على ميراث الحضارة وانه لولا تلك الاسرة التي أسسها لسكانت الدنيا اليوم غير ما هي عليه وان ارض الاندلس ستلقى على يد خلفائه أسعد أيامها وأزهى حضارتها فقياس عظمة هؤلاء الرجال هو انهم أدوا مطالب عصرهم وحققوا الفكرة التي كانت تضرب في احشاء الزمن ، وهم يمتازون بخضوعهم لعاطفة مستعلية عليهم غلابة على نفوسهم ، وحول القوة التي تفيضها هذه العاطفة وتصبها على الفكرة الهابطة على العصر تركز اكثر الحركات التاريخية ، وتأخذ هذه العاطفة عليهم مسالك نفوسهم

فلا يستوطنون راحة ولا ينعمون بسعادة وهي السر في الجهود الجبارة التي يبذلونها
وزاها نحن من فوق طاقة البشر وخارجة عن دائرة الامكان
فبعد الرحمن الداخل اذن من العطاء لانه حقق فكرة عصره وقام بأكبر مطالب
زمنه وكان يخضع لعاطفة قوية مسلطة على الفرض الذي يتطلع اليه العصر ، وكانت
هذه العاطفة تملأ شغاف نفسه فلم تصرفه عن تأدية مطلبها الاهواء والشهوات بل
انصلت في طريقه كما يندفع السيل الى الحدور، ومثل هذه القوة الفيضة العارمة
وهي في طريقها الى ما ربهما الكبرى قد تحطم الكثير من اشجار المبادئ السامية
التي استنظت بدواليها النفوس الكريمة الصادقة وتسحق ازاهير المشاعر الجميلة الرقيقة ،
ولا ينبغي ان يخذلنا عن هذه الناحية المظلمة والجانب الضعيف في حياة ابطال التاريخ
تفني الشعراء بعظمتهم في ألقاظهم الحلوة السحرية الرقافة الفضية وما يخلمونه عليهم
من سراويل الفخار وما يحبطونهم به من هالات الخيال ولا تمحك المؤرخين السياسيين
الذين يحاولون تبرير كل عمل وتسويغ كل خطية ويقولون ان العظمة اكبر من
المبادئ والاخلاق ، ومن دواعي اعجابنا هؤلاء العطاء اضطلاعهم بأعباء عصورهم
ومما يثير حنا لهم وعطفنا عليهم ان نهاية حياة اكثرهم كانت أشبه بالمأساة ، فان
الفكرة تنبذهم بعد تحقيقها فيموت أحدهم في روعة شابهه بأطلال بابل مثل الاسكندر
او يقتل في روما مثل قيصر او يقذف به الى صخور سنت هيلانة مثل نابليون او يبتلى
لهجره أصدقاؤه وتتقطع الاسباب بينه وبين أنصاره وتحفه طائفة من الخواطر السوداء
والافكار المزعجة حتى ينشب فيه مخلب الموت مثل عبد الرحمن الداخل .

Faint, illegible text, possibly bleed-through from the reverse side of the page. The text is arranged in approximately 20 horizontal lines across the page.

الفردوس والمجيم

- هبة الاسلام — تقدم الفتوحات الاسلامية —
- اختلال احوال اسبانيا عند الفتح الاسلامي —
- اسباب تأصل هذا الاختلال — التفاوت بين
- حياة الاشراف وحياء الطبقات الفقيرة —
- تدريب وفلورندا — الكونت بوليان وفتح
- الاندلس — دخول موسى بن نصير
- وانمامه الفتح

من حين الى حين ينبغي في مختلف الامم أفراد موهوبون يستطيعون ان يرتفعوا
فوق مستوى الانسانية المعهود وينظروا الى الكون غير المحدود نظرة شاملة مستوعبة
وكأنما وهم في أخذة الاعجاب ونشوة الاستغراق ينكشف لبصيرتهم النافذة وخيالهم
المشبوب خفايا الطبيعة المستورة وأسرارها الجليلة ، وتحدث المواقف الحاسمة في تاريخ
البشرية عندما يكون عصرهم متأهبا لتلقي رسالتهم واستلهاهم وحيهم وادراك تفسيرهم
الجديد للحياة الانسانية واقامة صرح المجتمع على ركائزه ، وقد كانت نهضة الاسلام
من تلك المواقف الفاصلة في التاريخ فقد جاءت مبادئه ملائمة لحاجات عصره متجاوبة
مع النزعات الجائشة في نفوس أهله ومناسبة لتكوين العرب العقلي وملكاتهم الوراثة
وزخاتهم الاخلاقية، ولقد أثار النبي محمد قوة العرب الكامنة وحرّك عواطفهم وأحدث
بينهم ثورة انتقال كبير وأبرزهم على مسرح التاريخ العالمي، وحركة الاسلام من الحركات
الفلائل التي أثار قلب البشري من أعماقه وحرّكت الافكار من أغوارها، وتعالبه
من القوة والنبيل والصفاء بحيث سمّت بنفوس العرب العصبية الجائحة فوق المنازع الشخصية
والاغراض الزائلة وأخرجهم من دائرة الاثرة المحدودة والمصيبة الضيقة فجادوا بالنفس

وارتخصوا الدماء في سبيل نشر مبادئ الاسلام وتغليب آدابه ، وتدفقت جوعهم على العالم كالسيل الجارف تكسح غوامر موجه ودوافع تياره كل شيء ولا يثبت أمامها شيء ، ففتحوا فارس والشام ومصر وشمال افريقية حتى أعمدة هرقل وانتظم الاسلام العالم من نهر سيحون في آسيا الوسطى الى سواحل الاطالانطيني وكما أوقف تقدمهم في آسيا الصغرى امبراطور الاغريق ، فكذلك في آخر حدود البحر المتوسط امتنع عليهم أحد عماله ، فقد سالت جيوشهم على شمال افريقية وهزموا البربر وأخضعوهم لسلطانهم حتى صدّهم حصن سبتة ، وكانت تابعة لامبراطور الروم كسائر جنوب البحر المتوسط ولكن بعدها الشاسع عن القسطنطينية جعل حاكمها يتوجه الى طليطلة لطلب المساعدة والناس الحماية مع احتفاظه بسيادة الامبراطور الاسمية ولم ترض عليه اسبانيا بالمساعدة والتأييد لاهمية موقع سبتة من الوجة الحربية فهي أول حاجز قوي يصد المغيرين عن أرضها

وكانت اسبانيا في ذلك الوقت مختلة الاحوال مضطربة الاوضاع قد تطاول على اهلها الجور وتمادى بهم الشقاء ، وكانت مرافقهم مهملة وحقوقهم مهدورة ، وكان الفساد متغلغلاً في سياسة الدولة وكان الداء الذي يسري في اوصالها متشعب الاسباب بعيد الاعراق . وقد بسط الرومان سلطانهم على اسبانيا سنة ١٣٤ قبل الميلاد وظلت خاضعة لهم الى اوائل القرن الخامس الميلادي ، وفي عصر القياصرة المتأخرين كان البناء الاجتماعي غير مستقر الدائم وكان نظام الحكومة فاسداً مسرفاً في الفساد ، كانت هناك أقلية من الاثرياء المستأثرين بالامتيازات والمنافع والمناصب الكبيرة وأكثريه مهملة مطرحة تمانى الفاقة والحرمان ونضوب الرزق وتسام الذل والهوان ، وكان عبء الضرائب واقماً على كاهل الاوساط ، وكان أنشرف الرومان وقد صدت سيوفهم في

انغمادها وكلت سواعدهم عن حملها يعيشون عيشة مترفة ناعمة مخلدين الى الدعة منها الكين على اللذة في قصور نخمة شايخة الذرى تجري الى جانبها الانهار هادئة متتدة الخطو تنعكس في صفحاتها الصافية ظلال اعراش الكروم واحراج الزيتون، وكانوا يزجون الوقت في المقامرة والاستحمام والمطالعة وركوب الخيل ويقيمون الحفلات الزاهرة في المحاريب الفيحاء المزدانة بالنجود الموشاة وفاخر الطنافس حيث يجلس المدعوون على الارائك . وقد صفت الموائد وفوقها الازهار المنضدة والصحاف الحافلة بألوان الاطعمة الشهية وغريز اللحم والابريق المترعة بمعتق الخمر فيتملأون من الطعام ويتعبون الشراب ويستنفون عقب الازهار ويتطارحون خلال ذلك مرتجل الاشعار ويتجادبون موق الاحاديث او يتسلون بعزف الموسيقى ويمتنعون الطرف برؤية اسراب الغيان الراقصات بين ترجيع الاوتار ومرسل الغناء وعلى هذا النمط كان يعيش اشرف الرومان ويفتنون في ضروب المتعة وألوان اللهو ، لا يلبون داعي المجد ولا يستبقون الى غاية نبيلة ولا يلهب شعورهم ويقض مضاجعهم الوثيرة ما يقاسيه الشعب من انتكاس الاحوال ومرير الآلام ، وكان بعض الافراد من طبقة العبيد والمزارعين وقد شفهم الظلم واستحك في نفوسهم اليأس يدفعهم سرف الغيظ وكين الحقد الى اللواذ بالغابات وتكوين العصابات والمناسر للسطو والقتل واحداث المثلات بسادتهم الاغنياء ، وكانت هذه العصابات من آونة لاخرى تهدد المدن تهديداً خطيراً وتهز المجتمع من اساسه هزاً عنيفاً

ولما زحفت قبائل البرابرة على اسبانيا في اوائل القرن الخامس وجدت الطريق سهلاً معبداً ولم تلق مقاومة ، وكانت الطبقة المستمعة بالامتيازات هي الطبقة الوحيدة الحريصة على دوام الحال ودفع الغزو واكسبها كانت ساقطة المهمة ناضبة الحيوية ،

ولم يكن من المنظور ان يناصر افرادها الشعب في الدفاع عن حوزة البلاد وقد
أغفلوا مراقفه وأعملوا اصلاح شؤونه وناموا ملء جفونهم عما يقاسبه من حيف وما
يعانيه من مكاره

وكان الشعب وقد يئس من الخير والاصلاح لايبالي بعد ذلك أحكمه الرومان أم
ساس أموره البرابرة، ولم تثبت مدينة واحدة للحصار ، بل كانت تبادر المدن جميعها
الى فتح ابوابها بلا مقاومة ، وكانت هذه القبائل العادية تسرف في النهب والسلب
والتخريب وتقتصد في القتل وسفك الدماء لانها وجدت قوماً مستسلمين لا يملنون حرباً
ولا يشهرون سيفاً ولا يخشى لهم بأس ولا صولة

وفي سنة ٤٢٩ أجلت قبائل الآلان قبائل الوندال عن اسبانيا وأرغموم على شد
الرحال الى افريقية ، ولكن بقي في اسبانيا قبائل السوابي وهم من أشد القبائل الالمانية
قسوة وفضاعة ، ثم جاءت قبائل القوط وهزموا السوابي في معركة دامية عند ضفاف
نهر اورفيجو واستعبدوا الاهالي وعسفوم عسفاً شديداً واتهكوا حرمت الكنائس
وانخذوها مرابط لحيوهم ، وأسس القوط في اسبانيا دولة قاعدتها طليطلة

وتأثر القوط الغربيون بعد دخولهم في المسيحية بالنحلة الاريوسية . وفي سنة
٥٨٧ نبذوا تلك النحلة ومالوا الى الكنيكة فقويت مكانة رجال الدين واشتد ساعدهم
وأصبح لهم في الدولة نفوذ بعيد وسلطة واسعة ، وأمل الشعب من وراء ذلك خيراً
لان رجال الدين كانوا في عهد ازدهار النحلة الاريوسية يتظاهرون بالمعطف على الشعب
ويواسون الفقراء وأشاعوا انهم سيعملون على الغاء العبودية والرق ، ولكنهم لما
اصبحوا أقوياء وهدأت شجونهم تناسوا هذه المبادئ السامية وأعلنوا ان وقت التحرير
لم يحن بعد وانه ربما لايجين الا بعد قرون ، وكانت الحالة الاجتماعية في جملتها أسوأ

كما كانت عليه في عهد الرومان اذ أصبح لا يباح لافراد طبقة المزارعين والعيبد
الزواج الا بأمر سادتهم الاشراف ومن أقدم منهم على مخالفة ذلك اعتبر زواجه باطلاً
وطلق من زوجته ، وكانت الطبقة الوسطى تحمل على كاهلها الضرائب كما كانت في
العهد السابق فأصابها الافلاس وعسرها الفقر . وكانت حياة المزارعين والعيبد مجدبة
شديدة المرارة وكانوا يبيعون مكسوري الفؤاد مبهضي الجناح ولم يكن يفتر لهم أمل
قبل حلول الموت وبطشة الفناء وكانما عناهم شوقي بقوله

يعانون في الاكواخ ظلماً وظلمةً ولا يملكون البت وهو يسير

ورجال الدين أنفسهم لما تضخمت ثرواتهم واتسعت أملاكهم أبدوا القوط في
سياستهم ولم يحاولوا رقيق قلوبهم وتبصيرهم بواجباتهم نحو الرعية المسلوبة الحق المتمرغة
في الذل ، وكان القوط كلما قارفوا جريمة ركنوا الى الصلاة ندماً عليها . ثم يعاودون
الاجرام بنفس مطمئنة ، وكانوا في اقبالهم على المذات يشبهون اشراف الرومان
والمهج الذي نهجوه من المسيحية لم يسم بأخلاقهم ولم يهذب طبائعهم ولم يوقظ ضمائرهم
اللاهية ، وازدادت حالة الطبقة الوسطى سوءاً وانتزعوا من أفرادها حق التصرف
في بيع املاكهم ، واشتد اضطهاد اليهود وبدأت حركة الاضطهاد المنظم سنة ٦١٦
واحتمل اليهود أقصى ضروب التنكيل صامتين صابرين ثمانين عاماً ولما غاض اصطبائهم
اتفقوا مع أبناء ملتهم في افرقية على القيام بثورة وكان الكثيرون من البربر قد تهودوا
لان بعض يهود أسبانيا نكلوا عن احتمال النكبات المتردفة التي حلت بهم وآثروا الهجرة
الى افرقية وأذاعوا هناك دينهم ، وفطنت الحكومة الى تدير الثورة وعاقت المتآمرين
عقاباً صارماً وصادرت املاكهم وقسمتها على المسيحيين وأمعنت في ظلمهم وإذلالهم
وكانت الطبقة الوسطى التي استنزفت ثروتها الضرائب وطبقة المزارعين الاشقياء

وطبقة اليهود المضطهدين تتلف على قلب الحالة التعمسة ونحلم بالخلاص من الفوضى الضاربة ومن سوء حفظ الطبقة الممتازة انها لم يكن لها قوة مدخرة للذود عن كيانها سوى هؤلاء المظلومين المضطهدين

وفي اوائل القرن الثامن الميلادي لما وصل المشاركة الى سواحل الاطلانطيقي وأشرفوا من مضيق «هرقل» على ذلك الاقليم المشرق الضاحي كان قد مضى اكثر من قرنين على حكم القوط لاسبانيا ، وكان الجالس على عرش اسبانيا في ذلك الوقت لذريق وقد بدأ حياته اميراً هاماً صالحاً وعضده فريق من الرومان الذين استوطنوا اسبانيا ورجال الكنيسة الكاثوليكية ونجح في استمالة بعض كبار بلاط الملك غبطشة واستطاع بذلك ان يستخلص العرش لنفسه — ومن المحتمل ان يكون قد سعى في خلع غبطشة وقتله فان التاريخ ليس صريحاً في ذلك — وتقلد الحكم سنة ٧٠٩ م. ولما اطلأن الى مكاته واستوثق من نفوذه تكشفت حقيقة اخلاقه وظهر مضمربياته ومال عن الجادة وأخذته النخوة وانغمس في الشهوة ، وكان من المتبع ان يرسل الاشرافا ولادهم الى البلاط لتكلم ترينهم وأرسل الكونت بوليان حاكم سبته الذي زاد عن حصونها ورد هجمات موسى بن نصير، ابنته فلورندا مع بنات الاشراف الى البلاط في طليطلة وكانت وفيرة الجمال فاستهوى حسنها لاذريق ولما لم يجد معها التقرب والمحاسنة فقد اضطر الى اغتصابها مخالفاً الوصية التي تجعله حامياً لها وكان مما يزيد فعلته نكراً وشناعة وهدماً للشرف ان امرأة بوليان كانت بنت غبطشة وبذلك أهين الدم القوطي الملكي في شخص فلورندا . وأخبرت فلورندا اباه بما اصابها فأضمر الشر للذريق ونوى ان يحفر تحت قدميه ويذبل ملكه ولم تكن العلاقة بينهما قبل ذلك حسنة لقراية بوليان من الملك السابق ، وكان بوليان قد نجح في

صد تيار العرب ولكنه صمم بعد ذلك على ألا يدافع عن الرجل الذي خان عرضه
 ودنس شرفه وهروا الى بلاط لذريق في زمهرير الشتاء غير مبال بنفحات القر والريجة
 في الانتقام حشو نفسه وأخفى شعوره عن لذريق وادعى ان زوجته مريضة وانها تريد
 رؤية ابنتها وظن الملك ان الامر لم يبلغه فأخذ بعلي مكاته ويتحفي به وبشاوره في
 خفايا السياسة وجيل الشؤون ويعمل برأيه ، وخرج بوليان وابنته من طليطلة وأوصاه
 الملك وهو يودعه ان يبعث اليه بعض الصقور لحاجته اليها للصيد فأجابه بوليان بأنه
 سيبعث اليه صقوراً لا عهد له بمثلها — وكان يقصد بذلك العرب — وعاد الى سبته
 وسمى الى المنول بين يدي موسى بن نصير حاكم افريقية الذي طالما حاربه وثبت
 لمخلائه واحتفى موسى بمقدمه لما عهد فيه من الشجاعة واليقظة وأخبر موسى ان
 لا حرب بينهما ثم اخذ يصف له الاندلس وسماءها الصافية وشمسها الزاهية وأنهارها
 الجارية ورياضها الغناء ومناهلها العذبة وملاً اذنه بالحديث عن مواردها الفياضة
 وخيراتها الغزيرة وكنوزها العامرة وحواضرها الزاهرة وذكر له الثبات احوالها
 السياسية وما يعانى اهلها من فواح الظلم وتباريح الفاقة وزين له الاستيلاء عليها
 وتمهد له بأن يدلّه على العورات ويتجسس له الاخبار ويعيره السفن وكان موسى رجلاً
 صارم العزم مترامح الامل فتعلقت اطماعه بفتح الاندلس ولكنه كان حذراً فارتأى
 ان يرسل الخليفة في دمشق يسأله رأيه ثم ارسل طريفاً يرتاد الشواطىء وارسل
 بعد ذلك طارق بن زياد ولم يكذب يتقدم طارق حتى أقبل اليه لذريق بمجر جموعه ،
 وكان اراد ان يرضى اولاد غبطشة وان يستل حقدهم عليه فدعاهم الى الكفاح
 معه فأمروا به ويتوا له الشر والتقى الحيشان بوادي بكة من شدونة وبرغم
 ان موسى كان قد أمداً طارقاً بخمسة آلاف مقاتل كان عدد الجيش القوطي ستة

امثال جيش طارق ، وقد انتصر طارق انتصاراً باهراً وكان من عوامل انتصاره
انحياز اقارب غيطشة الى جانب العرب عند ما حمي وطيس الحرب ولم يخطر
ببالهم أنهم بهذه الفعلة قد خانوا وطنهم لانهم كانوا يعتقدون ان حملة العرب
غرضها النهب والسلب وانهم اذا امتلأت ايديهم بالغنائم طردوا ادراجهم ويتمكن حزب
غيطشة بذلك من استعادة نفوذه وتصيب احد ابناؤه وهكذا أعمتهم الانانية القصيرة
النظر عن ادراك ما ينطوي عليه عملهم من الحيانة ، وحضر بعد ذلك موسى بن نصير
الى اسبانيا واشترك مع طارق في اتمام الفتح وتثبيت اقدام العرب في اسبانيا وتقدم
موسى الى جبال البرانس واطل منها وفكر في غزو اوربا ولكن بينما كانت نفسه تحيث
بهذه الافكار اتاه كتاب الخليفة الوليد يأمره بالقدوم عليه لما بلغه من خلافه مع طارق
وسوء معاملته له

Handwritten text in Arabic script, likely a historical or administrative document. The text is arranged in approximately 10 horizontal lines across the upper half of the page. The script is dense and characteristic of classical Arabic calligraphy. The content is mostly illegible due to fading and the angle of the page.

افتقار البطل

الاسيانيون وعدالة مبادئ الاسلام —
قتل عبد العزيز بن موسى — اسراء الاندلس
والتنافس بين قيس والجنينة — سياسة هشام
نحو البربر — استعماله عبيد الله بن الحبحاب على
المريقية — ثورة البربر في افريقية وامتدادها
الى الاندلس — كلثوم بن عياض وابن اخيه
بلج — ولاية عبد الملك بن قطن — اضطرار
عبد الملك الى الاستنجاد ببلج ورجاله —
اخماد ثورة البربر بالاندلس — الخلاف بين
عبد الملك بن قطن واصحاب بلج — ولاية ثعلبة
ابن سلامة — ولاية ابي الخطار — الخلاف
بينه وبين الصميل بن حاتم — ولاية سلامة بن
توابة — ولاية يوسف بن عبد الرحمن النهري —
موقعة شقندة — حصار الصميل في سرقسطة

الحياة الفتحية

بعد ان قوت ثورة الفتح وسكنت نفرة النفوس وجد الاسبانيون انهم يتفياون
ظل حكومة ابراهيم وارحم من سائر الحكومات السابقة ، فقد انقشلتهم من الهوان
وأقلت عثرتهم ونسخت ظلمات العصر الفارط ونظمت شؤونهم الادارية وأباحت
لهم اتباع قوانينهم والاستمسك بتقاليدهم واختيار قضاتهم وأقامت لهم حكماً من جنسهم
كان يوكل اليهم جمع الضرائب وحفظت لهم جميع املاكهم وأذنت لهم بحق التصرف
فيها من بيع او شراء وكان القوط قد استلبوا منهم هذا الحق ، وكان عليهم ان يدفعوا
ضريبة الاعناق السنوية وكانت تقسط لهم على اثني عشر قسطاً تيسيراً لهم في الدفع
واعفي من دفعها النساء والكهنة والضعفاء والاطفال وكانت هذه الضريبة تسقط عن
يسلم ، اما الخراج وهو عشرون بالمائة من محصولات الارضين فقد كان واجباً دفعه
على المسلمين والمسيحيين وقد فرضه المسلمون على جميع العناصر والطبقات بالعدل والمساواة
واخذ العرب بناصر الطبقات المستعبدة وهم سواد الشعب وقضى الفتح على امتيازات
الاشراف واستبداد الكنيسة لان الحكومة وضعت يدها على ما كان لها من
الاقطاعات الكبيرة وقرقتها بين اناس عديدين

ولم يكن هناك اثر للاضطهاد الديني لسماحة مبادئ الاسلام من ناحية ولان
ضريبة الاعناق من ناحية اخرى كانت نافعة للخزينة ولذا كان الحكام الذين
يفتصرون على النظر الى الامور من الجانب الاقتصادي غير حريصين على ادخالهم
في الاسلام ، وقد وجد الكثيرون من ارقاء الاسبان السبيل الى الحرية ممهداً باتباعهم
الاسلام ، ودخل كثيرون من السراة في الاسلام فريق منهم اعجاباً بديساطته ونبل
تعاليمه وفريق آخر فراراً من الجزية ، والواقع ان المسيحية لم تكن قد تاصلت في
نفوس الاسبانيين عند دخول العرب فقد كانت الوثنية لا تزال تناهضها بمض المناهضة
وكان ابناء الرومان تغلب عليهم نزعة الشك وكان ابناء القوط قليلي العناية بالشعائر
الدينية وكان رجال الدين مصروفين الهمة الى احتجان الاموال واضهاد اليهود فلم
يتسع لهم الوقت لغرس مبادئ الدين

ولما اجاب موسى بن نصير دعوة الخليفة ونجهز للرحيل الى الشام اقام ابنه
عبد العزيز حاكماً على اسبانيا فجعل دار حكمه مدينة اشيلية وتزوج ارملة لذريق ورأى
خصومه ان هذا الزواج قد غير اخلاقه وجعله يعامل النصارى في رفق ولين فنقموا
عليه مفالاته في استرضائهم وفرط عنايته بمصالحهم وبالغوا في التنديد به وافتروا عليه
المثالب وأبلغوها الخليفة سليمان بن عبد الملك فدفعه سخطه على موسى الى ان يتخذ
رسالتهم حجة للاغراء بقتله فقتل وهو يصلي في المسجد صلاة الصبح

وتوالت بعده الحكام على الاندلس ، وكان حاكم افريقية في اغلب الاوقات هو
الذي يختار حاكم الاندلس ، وكان اكثر الحكام ينتسبون الى احدى الشعبين
الكبيرتين من العرب وهما قيس من المضربة والبهانية ، ولا مفر لنا من ان نلاحظ ان
العرب الذين فتحوا العالم ودوخوا الحياوش لم يكونوا شعباً قد تم امتزاجه وكرمت

وحدته وانسجمت اجزاؤه وتلافت اهرأؤه ، وقد استدعى اظهارهم بمظهر الامة
 المتحدة الغاية مجهوداً كبيراً من النبي وسياسة حازمة مترددة بين اللين والقسوة من
 خلفائه ، وقد كانت العرب مكونة من قبائل وبطون وكان بينها في الجاهلية حروب
 وترات دامت اجيالاً متعاقبة ، ولم تحمد في نفوسهم روح المنافسة القبلية عند دخولهم
 في الاسلام وظلت مشتعلة اللهب تعمل عملها وراء مبادئ الاسلام السمحة ، ولو ان
 حكومة الاسلام ظلت محصورة في بلاد العرب لمصف بها الخلاف ومزقتها المصيبات
 ولكن انهماكهم في الفتوحات جعلهم يتناسون الى حين قديم احقادهم وشديد عصبيتهم
 وانسلخوا انسلخاً مؤثماً من روح القبيلة وكان يحدوهم على الفتح الامل في الجنة
 وكذلك الطمع في كنوز كسرى وملك قيصر ، ولما وقفت حركة الفتح واستتبت
 احوالهم في البلاد التي فتحوها نارت الاحقاد من كوامنها وأتلمت العصية جيدها
 وكان هناك البربر وكان لهم النصيب الاوفر في فتح الاندلس مع طارق
 وهم قوم اشداء قارموا العرب مقاومة عنيفة وثبتوا لهم طويلاً ولقي العرب منهم احوالاً
 لم يتعرضوا لامثالها عندما قاومتهم جيوش الروم وجموع الاكاسرة ، وقد ألقوا السلاح
 في النهاية ولكن على شريطة ان يعاملوا معاملة الانداد والاخوان ، وكانوا يشبهون
 العرب في بساطة الحياة وصلابة الاخلاق وقد ألقوا الاستقلال وتعودوا الحرية لان
 سلطة روما كانت مقصورة على الشواطئ وكان نظامهم الاجتماعي يشبه نظام العرب
 وهو ديمقراطية يحد من قوتها ويهذب من حواشها قوذا الاسر الارستقراطية والويل
 لمن كان يمس كبرياءهم ويتحدى شعورهم وقد سمحوا للحاكم العربي ان يقيم بلاطه
 قرب الساحل وتمسكوا بحكم قبائلهم بين انفسهم

ولما ولي الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ . وكان يميل الى قيس من المضربية

اختار يزيد بن أبي مسلم حاكماً لأفريقية ، وكان يزيد كاتباً للحجاج الثقفي وقد نخرج في مدرسته السياسية وحذق أساليبه في الحكم فأراد ان يسير فيهم سيرة الحجاج في أهل الاسلام الذين سكنوا الامصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة وأسلم بالعراق فقد أمر الحجاج بردهم الى قراهم ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار وحاول يزيد ان يفعل بأهل سواد افريقية ذلك فكلموه وحذروه مغبة عمله ولكنه عزم على ما عزم عليه فلما تحققوا ذلك أجمع رأيهم على قتله فوثبوا عليه وقتلوه سنة ١٠٢ هـ . ولولا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبله وهو محمد بن يزيد مولى الانصار وكتبوا الى الخليفة يزيد بن عبد الملك « انا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا علينا محمد بن يزيد » وأحسن يزيد تناول الموقف فكتب اليهم « اني لم أرض بما صنع يزيد بن أبي مسلم » وأقر محمد بن يزيد على عمله مدة أيام ثم سرح له ارسال بشر بن صفوان حاكم مصر الى افريقية فكتب اليه بالتوجه اليها وأقر أخاه حفظة على مصر عوضه برغبة أخيه بشر

وكان هشام بن عبد الملك على دهائه وكفايته السياسية أقل توفيقاً في سياسته مع البربر من أخيه يزيد ، وقد أثار بذلك ثورة خطيرة انتشرت انتشاراً مروعاً وامتدت لواهها من افريقية الى الاندلس ، وكانت ميوله عند ما تولى الخلافة يمانية ولكن انتهى به الامر الى أخذ جانب القيسية لانه وجدهم أطوع له وأكثر تلبية لجشعه فأسلمهم الولايات التي بحسنون استغلاها وبستخرجون منها ريباً ضخماً ، ففي سنة ١١٤ هـ . استعمل على افريقية عبيد الله بن الحجاج بن الحارث مولى بني سلول صاحب خراج مصر وكان عبيد الله رجلاً مثقفاً راجح العقل حافظاً للشعار ملماً بأيام العرب وكان

متواضعاً لا يزدهيه السلطان فقد قدم عليه وهو حاكم افريقية وفي أوج مجده عقبه
ابن الحجاج السلوي - وكان أبوه الحجاج قد أعتق الحارث جد عبيد الله - فأكرمه
وأجلسه معه على فراشه. وكان لعبيد الله أولاد لهم في أنفسهم أخطار فلما وجدوه
جالساً معه لم يرقهم ذلك فلما خلوا بأبيهم طابوه واشتدوا عليه في العتب وقالوا له
« عمدت الى اعرابي فأجلسته معك وحولك وجوه قريش والعرب والله ليقعن ذلك
في أنفسهم بحيث تكره وأنت شيخ لا قامي عليك لعل الموت ان يختلسك فلا تستضر
بداوة احد وانما تتوقع ان يبقى علينا العار ومع ذلك لانأمن ان يبلغ ذلك امير
المؤمنين فيقع من قلبه اعظامك هذا وتصغيرك قريشاً »

فأظهر عبيد الله لهم الافتناع برأيهم وقال لهم « يا بني صدقتم ولم الق بالآلما ذكرتم
وأنا غير طائد الى ما كان مني »

ولما اصبح بعث الى الناس فأجلسهم وبعث الى عقبه فلما جاء اجلسه في صدر
المجلس وقعد هو عند رجله، ولما اجتمع الناس وكثروا بعث الى اولاده فلما دخلوا
عجبوا وعلمو ان الشيخ سيطلع باثقة وبرمهم بفادحة ولما اطمان بهم المجلس قام عبيد الله
على رجله فحمد الله وأثنى وصلى على النبي (صلم) ثم ذكر ما كان من قول اولاده
ثم قال « ايها الناس اشهد الله واياكم وكفى بالله شهيداً ان هذا عقبه بن الحجاج وان
الحجاج أعتق الحارث وان اولادي هؤلاء لعب بهم ابليس وعجبهم بأنفسهم فأردت
ان أبرأ الى الله من الكفر ومن حق هو لله ولهذا قبلي وخفت ان يترامى الحال
بأولادي الى انكار حق علمه الله بالتبري من ولاء هذا وأيه ان يلغهم الله واللاعنون
فاني سمعت عن رسول الله (صلم) انه قال « ملعون من ادعى الى غير نسبه ملعون من
أنكر نعمة المنعم عليه » وان ابا بكر الصديق رحمه الله قال « كفر بالله تبر من نسب وان

دق وكفر بالله ادعاء الى نسب مجهول « فكرهت لكم يا بني ان نبوء بلعنة الله ولعنة
اللاعنين فأكثر نظري كان لي ولكم، وأما قولكم ان الامر يقع لي عند امير
المؤمنين بحيث اكره كلاً امير المؤمنين أبقاه الله أحلم وأعلم بالله وأرعى لحقوقه من ان
يكون منه ما وصفتم بل يقع ذلك منه موقع رضاه « فشكره الناس ودعوا له وقام ولده
وقد أصفرهم الحق وأقامهم ، والتفت الى عقبه وقال له « ياسيدي حقك واجب وقد
بسط لي امير المؤمنين ما ترى وأنت عند رضى فان شئت ولبتك الاندلس ، فاختار
عقبه الاندلس وقال « اني احب الجهاد وهي موضع جهاد » ودخل الاندلس وافتتح
الارض حتى بلغ اربونة

ولكن عبيد الله برغم سمو اخلاقه ووفرة فضائله كان مثل سائر العرب حين صعود
نجمهم لا يستطيع ان يغالب احتفاره للاجناس غير العربية، فالاقباط والبربر والاسبان
في رأيه ادنى منزلة من العرب وانما وجدوا ليستجيبوا لمطالب العربي ويزيدوا ثروته،
وكانت زعته القيسية تميل به نحو سياسة قيس في استغلال الولايات التي يعهد الى
افراد منها حكمها تمكيناً لمكانهم عند الخليفة وقد زاد عبيد الله وهو على خراج مصر
ضرائب الاقباط حتى اضطرهم الى الثورة ولما عين حاكماً لافريقية اراد ان يشبع رغبات
سادة دمشق على حساب البربر وكانوا يكتبون اليه في جلود الحرفان العسلية فتذبح مائة
شاة ربما لم يوجد فيها جلد واحد من النوع المطلوب وقد اضر ذلك بحالة البربر
الاقتصادية وساء البربر ان ترسل نساؤهم وبناتهم الى بلاط دمشق واكلتهم كظموا
غيزهم واحتملوا ذلك صابرين لمدة خمس سنوات كان يثنيهم فيها عن الثورة وجود
جيش ضخم وكانت الثورة خلال ذلك تستجمع عواملها وتسوفي عناصرها وتصطبغ
بالصبغة الدينية تبعاً لطبيعة البربر ، والفارق الكبير بين مزاج البربر ومزاج العرب ان

العربي بطبيعته نزاع الى السخرية ميال الى الشك . أما البربري فانه عميق العاطفة الدينية يأخذ الدين مأخذ الجد الصارم وبوغل فيه بغير رفق وهو شديد الاعتقاد كثير التصديق لما وراء الطبيعة ولا يفتن من فوره الى الجوانب الفكاهية في الاشياء ولا يدرك متناقضاتها وانما يكتفي بالايان الشديد ومن ثم فرط احترامه لرجال الدين وسهولة انقياده لهم ، والبربر لم يلبعوا دوراً هاماً في التاريخ الاً عند ما استفزهم الدين ، ورجال الدين عند البربر هم الذين وضعوا اساس دولة المرابطين ودولة الموحدين ، وعندما حاربوا العرب كانت تقود جموعهم امرأة كاهنة كانت تدعي النبوة وتخرق المعجزات وقد فهم عقبة ابن نافع عقليتهم واستطاع بعد ذلك ان يختلب ألبابهم ويجتذبهم للاسلام، ولما ذاع فيهم الاسلام لم يكن اسلاماً رسمياً هيناً وانما كان اسلاماً جدياً صارماً كالاسلام الذي يبشر به غلاة الخوارج، وقد وجد الخوارج ، بعد ان لحقهم الفشل وكسرهم الاضطهاد في الشرق تربة صالحة وجواً مناسباً لنشر تعاليمهم بين البربر، ومبادئ الخوارج اقرب الى المبادئ الجمهورية المتطرفة وهي بهذه المثابة تلائم مزاج العرب ولكن العرب نبذوها لانهم لا يطبقون الاسراف في الدين ولا يأخذونه مأخذ الجد الشديد العبوس الذي كان يميز الخوارج ، ولم يعمل البربر على فهم الخلاقات الدقيقة بين فرق الخوارج وانما راقهم منها الجانب الثوري والمبادئ الديمقراطية

ولما عنيت لهم الفرصة المناسبة أشعلوا نيران الثورة في افريقية ولم تستطع جيوش العرب اخمادها ، ولما انتهى خبر الثورة الى الخليفة هشام وما كان من أمر الخوارج وخلمهم لطاعته وعيهم في الارض شق عليه ذلك وعزل عبيد الله بن الحبحاب عن افريقية وولى عليها كلثوم بن عياض القشيري ووجه معه جنداً كثيراً لقتالهم وأرسل معه بلج ابن أخيه ليخلفه اذا مات وكان كلثوم شيخاً كبيراً . ولما نزل كلثوم افريقية

خرج اليه ناس كثير واستنصختم جيشه ومع ذلك فإنه لما تلاقى مع البربر انجلت الموقعة
عن شر هزيمة وقتل كثيرون من أشرف العرب بينهم حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة
ابن نافع وجرح كلثوم ولاذ بلج بمدينة سبنة واحتفى بها
ولم يشأ العرب في أسبانيا اغانة العرب المحصورين في سبنة لانهم كانوا يخشونهم ،
وكان النصر السائد في عرب أسبانيا في ذلك العهد أكثره من أهل المدينة من أبناء
المهاجرين والانصار ، وكانوا قد هجروا المدينة بعد ان أصابهم ما أصابهم من قسوة أهل
الشام وتكبلهم بهم في موقعة الحرّة وانضموا لجيوش موسى بن نصير واشتركوا معه
في الفتح ، وكانت كراهتهم لاهل الشام لا تزال متقدمة للظى مسجورة السعير ، وعند
قيام ثورة البربر كان عقبة بن الحجاج لا يزال حاكماً للاندلس وأوهنت الثورة نفوذ
حاكم افريقية واتفق ان عقبة مرض مرضاً خطيراً لا يرجى فاضطره المدنيون الى
جعل عبد الملك بن قطن خليفة له ، وكان عبد الملك احد الذين نجوا من
سيوف اهل الشام في معركة الحرّة وكانت عداوته من اجل ذلك لاهل الشام
شديدة ظامئة الى الانتقام ، وكان بلج مضطراً الى التماس معوته والاستغلال
بعطفه وكان عبد الملك في التسعين من عمره فلما لاحت له هذه الفرصة للتشفي من
اعدائه القدماء بعد هذا العمر الطويل ابت له ذكريات يوم الحرّة ان يفلتها وسره
ان يتركهم يتضورون جوعاً ويفنون حسرة وهزالاً جزاء وفاناً لهم لفتكهم بقومه
وقتلهم اصدقاءه ، ولما رأى عرب الاندلس استغاثتهم وهلكتهم هز ذلك اربحية
رجل من لحم فجهد جهده وبذل ما عنده وأمدحهم بقارين شحنهما بالشعير والادام
فلما اتاهم ذلك نالوا منه ولكنهم لم يبلغ منهم مبلغاً حتى اشرفوا على الهلاك وأكلوا
البقل والعشب وجلود الخيل وأنهم عبد الملك الرجل الذي اطاهم بتغريب الجند عليه

وشمل عينيه وضرب عنقه وصلبه مبالغة في التمثيل به وليكون عبرة لغيره
ولكن الاقدار كانت مشيئتها غير ما يريد عبد الملك فقد حدث في هذا الظرف
المؤلم العصيب حادثة ارغمت عبد الملك على تغيير سياسته واجبرته على التقرب من
المحصورين في سبته ، وذلك ان البربر في اسبانيا كانوا يقاسمون اخوانهم في افريقية
الغيرة من العرب ويشاطرونهم الحقد والموجدة عليهم ، وكانوا يرون انفسهم الفاتحين
الحقيقيين لاسبانيا الذين احتلوا الصدمة الاولى وذلوا العقبات وعبدوا الطريق
وجاء بمدم العرب واستقلوا جهدهم وجنوا ثمار الفتح ولم يكن لهم هم سوى احتلال
البلاد التي فتحت لهم ابوابها بلا مقاومة . ولما جاء وقت تقسيم الغنيمة وتوزيع
الاسلاب ظفر العرب بنصيب الاسد ورفت عليهم ظلال النعمة وانفردوا بمناصب
الحكومة واستأثروا بأجمل البقاع وأضرها جناباً وأخصبها ارضاً ونزلوا للبربر عن
الاصقاع الفاحلة الكزة حيث كان نصيبهم فيها الاستهداف الدائم لحملات الاسبانيين
الذين لم يخضعوا خضوعاً تاماً ، وكانت مصائر اسبانيا مرتبطة بمصائر افريقية بحيث
لا يمكن ان تكون حوادث افريقية بغير صدى في اسبانيا ولذا قام البربر بثورة كبيرة
وأسرفوا في تقتيل العرب ومنيت بالفشل جميع الحملات التي ارسلها عبد الملك لاختاد
الثورة وحسم خطرها . ونخرج موقف العرب في اسبانيا وضاق عبد الملك بالامر ذرعاً
ولم ير أعز له وأبقى على حياته وقوده من الاستمداد بأعدائه اللدناء اهل الشام
المحصورين مع بلج في سبته فدخل معهم في مفاوضة وبعث اليهم السفن حافلة
بالاطعمة والادام لتمسك عليهم ارماتهم وأدخلهم ارسالاً واشترط عليهم ان يعطوه من
كل جند عشرة من قوادهم باعتبارهم رهناً بضعهم في جزيرة في البحر فاذا فرغوا من
الحرب جهزهم وحملهم الى افريقية فرضوا بذلك وأعطوه عهداً ، واتخذوا عليه

عهداً ان يحملهم الى افريقية جملة لا يفرقهم ولا يعرضهم البربر ودخل معهم وفي
جملتهم عبد الرحمن بن حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع بعد ان قتل ابوه في
نقدورة . وكان دخولهم الاندلس سنة ١٢٣ هـ . ولما نزلوا ارض الاندلس في أسبانيا
الحلقة وجدوا جلوداً مدبوغة فقطعوا منها المدارع وتدرعوا بها . ولما اقبلوا الى
قرطبة كسا ابن قطن خبارهم وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا وأخذ عبد الملك
رهنهم . وأقرهم بجزيرة ام حكيم في البحر . واقبل البربر الى مدينة طليطلة وصدمهم
عبد الملك بمن معه صدمهم فالتقوا في ارض طليطلة على وادي سليط واقتلوا اقتتالاً
شديداً واستبسل اهل الشام وانهزم البربر فقتلوهم قتلاً ذريعاً ولم ينج منهم الا
الشريد وجول اهل الشام في ارض الاندلس وقتلوا البربر حتى اطفأوا جمرتهم ولما
فرغوا كروا قافلين الى قرطبة ولما امن عبد الملك غائلة البربر وأطمأن به الحال طلب
اليهم الخروج من الاندلس وكانوا قد أثروا من الغنائم واتعشت احوالهم واشتدت
شوكتهم فقالوا « أخرجنا الى افريقية » فاعتذر عبد الملك بأنه لا يملك السفن
الكافية لنقلهم مجتمعين وقد صارت لهم خيول ورقيق ومنايع وعرض عليهم ان ينقلهم
ارسالاً فأصروا على الخروج مجتمعين فقال لهم عبد الملك « اخرجوا الى سبتة »
فقالوا له « نمرضنا لبربر طنجة ائذف بنا في لجة البحر أهون علينا » واستشفوا
من مضامين كلامه سوء نيته وانطواءه لهم على القدر وذكروا صنيعه بهم ايام انحصارهم
في سبتة وقتله الرجل الذي أغاثهم باليرة فخلعوه وقدموا على انفسهم اميرهم بلج بن
بشر ووثبوا على عبد الملك بن قطن واخرجوه من قصر الامارة وادخلوه بلجا صاحبهم
وبابعوا له ونزل ابن قطن داره وهرب ابناه فلحق احدهما بماردة ولحق الآخر
بسرقسطة واختلط امر الناس بالاندلس وأمسك والي الجزيرة عن امداد الرهن

الذين في جزيرة ام حكيم بما يعيشهم من الطعام والماء والجزيرة التي هم فيها لا ماء لها
فمات من الرهن رجل من اشرف الشام ، فلما بعث بلج في اخراجهم واقبلوا اليه شكوا
ما ركبهم به ابن قطن وقتله صاحبهم بالعطش وقالوا له « اقدنا منه » فحاول بلج ان
يهدى نائرتهم وقال لهم « ان موت صاحبكم كان على شبه الخطأ ولكن امهلوا حتى
نرى ما تصير اليه الامور » فلم يفتأ هذا الكلام غلثهم ولم يردم الى الاصاله وانهموا
بلجا بالنعصب للمضربة وهموا بخلع طاعته وخشى بلج تفرق الكلمة وانصداع الشمل
وهو في مهاب الرياح ومركزه مقلقل فامر بعبد الملك بن قطن فأخرج اليهم وهو شيخ
كانه فرخ نعامة فجعلوا يصيحون به ويتنادرون عليه ويقولون له « يا فال فللت من
سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا اكل الكلاب والجلود طلباً بتار الحرة » وأخرجوه الى
رأس قنطرة قرطبة فقتلوه وصلبوه عن يسار الطريق وصلبوا عن يمينه خنزيراً وصلبوا
عن يساره كلباً واقاموه كذلك يوماً ثم ان موالي له من البربر طرقوه وسرقوا خشبته
وواروا جثته ، فلما بلغ ابنه ما كان حشداً جمعاً من اقصى اربونة ونشبت الحرب بين
المدنيين والسوريين وانضم البربر الى المدنيين فقد رضوا ان ينالوا ثأرهم من اهل الشام
فاذا فرغوا كان لهم في المدنيين رأي واقبل قطن وأميه ابنا عبد الملك ومهما عبد الرحمن
ابن حبيب وكان في اصحاب بلج فلما صنع بعبد الملك ما صنع انحاز عن بلج وخرج عن
دعوة اهل الشام ، واقبل معهم عبد الرحمن بن علقمة صاحب اربونة حتى صاروا على
مقربة من قرطبة فخرج اليهم بلج في اصحابه فقاتلوه فلم يقوموا له ولم يصبروا الا
صبراً يسيراً الا ان عبد الرحمن بن علقمة وكان بعبد فارس اهل الاندلس قال لهم
« اروني بلجا فوالله لا تقتله او لا موتن دونه » فأشاروا الى بلج وقالوا له صاحب الفرس
الايض فشد بخيل الثغر فانزعج اهل الشام عن بلج والراية في يده فضربه بالسيف على

رأسه فشد عليه من رجال بلج الحصين بن الدجن فضربه ضربات بالسيف وجعله من باله حتى قطع عاديته وشغله بنفسه وانهمزوا هزيمة قبيحة وتبعهم الشاميون يقتلون ويأسرون ومات بلج الى أيام بسيرة ، فولوا عليهم نعلبة بن سلامة العاملي فخاربه أهل الاندلس الاقدمون والبربر طلباً للتأثر وآل أمرهم معه الى ان حصره بمدينة ماردة وهم لا يشكون في الظفر الى ان حضر عبد تشاغلوا به فأبصر نعلبة منهم غرّة وانتشاراً وأشراً بكثرة العدد والاستيلاء فخرج عليهم في صبيحة عيدهم وهم ذاهلون فهزمهم هزيمة شنعاء وأفشى فيهم القتل وأسر منهم كثيرين وسبي ذريتهم وعيالهم وأقبل الى قرطبة بعدد كبير من سيدهم حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس وهو يريد ان يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة وأصبح الناس منتظرين لقتل الأسارى فيينا كان في السوق وهو يبيع السبي بالنداء ويبعث ويبطر ويبيع الشيوخ والاشراف ممن ينقص لا ممن يزيد وكان فيهما رجلان من اشراف أهل المدينة فابتدأ المناادي عليها بعشرة دنانير فلم يزل ينادي من ينقص حتى باع أحدهما بعود والآخر بكلمة فيينا هو وأصحابه على هذه الحالة من العبت والبغي فاذا بهم قد طلع عليهم لواء فيه موكب فنظروا فاذا ابو الخطار حسام بن ضرار الكلابي قد أقبل والياً على الاندلس من قبل حنظلة ابن صفوان صاحب افريقية وذلك سنة ١٢٥ هـ .

وكان جماعة من أهل الرأي في الاندلس قد ساءت لهم هذه الاحوال والفظائع التي ارتكبت وقدروا خطر استفحال الشر بين المدنيين وأهل الشام وما ينجم عنه من بلاء مستطير وفناء محقق فأرسلوا الى صاحب افريقية « ان أغثنا بوالر يجمعنا وبأخذ يبعثنا له ولا أمير المؤمنين حتى يصير المدنيون والشاميون على دعوة واحدة فقد أفتانا القتل وحفنا العدو على ذرارينا » فأرسل لهم حنظلة بن صفوان طاملي افريقية أبا الخطار

فرضي به الفريقان وصارت الكلمة جامعة وأبعد الزعماء المشاغيين الطامعين ومن
 بينهم ثعلبة بن سلامة وهرب منه إلى إفريقية عبد الرحمن بن حبيب حيث كان ينتظره
 هناك مستقبل زاهر وملك عريض وأظهر أبو الخطار العدل فدانت له الأندلس ،
 وكان أبو الخطار مع فروسينه وحزمه شاعراً محسناً وهو صاحب الآيات المشهورة في
 العتب على بني مروان والتي رفعت إلى مسامع الخليفة هشام وكان لها في نفسه وقعٌ
 بليغ وفيها يقول : —

أفأتم بني مروان قيساً دماءنا وفي الله ان لم تصفوا حكم عدل
 كأنكم لم تشهدوا مرج راهطٍ ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
 وقيناكمو حدة القنا بنحورنا وليس لكم خيلٌ سوانا ولا رجل
 فلما بلقتم نيل ما قد أردتمو وطاب لكم منا المشارب والأكل
 تمايمتمو عنا بعين جلية وأتم كذا ما قد علمنا لنا فعل
 فلا تأمنوا ان دارت الحرب دورة وزلت عن الرقاة بالقدم التعل
 فينتقض الجبل الذي قد قنتمو ألا ربما يلوى فينتقض الجبل
 وسار أبو الخطار سيرة حميدة ولكن كان من الصعب على رجل عربي فتح مثله
 ان يفتح تعصبه لقومه وسرطان ما مالت به العصبية البمانية على المضربة فهاج الفتنة
 العمياء ، وكان سبب هذه الفتنة ان أبا الخطار بلغ به التعصب للبمانية ان اختصم عنده
 رجل من قومه مع خصم له من كنانة كان أبلج حجة من ابن عم أبي الخطار قال
 أبو الخطار مع ابن عمه ، فأقبل الكناني إلى الصميل بن حاتم ، أحد سادات مضر ،
 وشكا إليه حيف أبي الخطار وكان أياً للضم حامياً للمشيخة فدخل على أبي الخطار
 وأمض عتابه فنجبه أبو الخطار وأغلظ له الرد فرد الصميل عليه فلكرزه أبو الخطار

وأمر به فأقيم ودع قفاه حتى ماتت عمامته فلما خرج قال له بعض من على الباب

« يا أبا الجوشن ما بال عمامتك مائلة ؟ »

فأجابهم « ان كان لي قوم فسيفيمونها »

وأقبل الى داره فاجتمع اليه قومه حين بلغهم ذلك ممتعضين فباتوا عنده فلما اظلم

الليل قال لهم « ما رأيكم فيما حدث علي فانه منوط بكم » فقالوا له اخبرنا بما تريد فان رأينا

نبيك رأيك فقال « أريد والله اخراج هذا الاعرابي من هذا السلطان على ما خيلت

وأنا خارج لذلك عن قرطبه فانه ما يمكنني ما أريد الا بالخروج قالى ابن ترون أفصد ؟ »

فقالوا له « اذهب حيث شئت ولا تأت أبا عطاء القيسي فانه لا يواليك على أمر

ينفعك » وكان ابو عطاء هذا سيداً مطاعاً يسكن باستجة وكان مشاهناً للصميل مسامياً

له في القدر ، فسكت عند ذكره أبو بكر بن الطفيل العبدي وكان من أشرفهم الا

انه كان حدث السن ، واسترعى صمته التفات الصميل فقال له « ما بالك صامتاً ألا

تتكلم ؟ » فأجابه « أتكلم بواحدة ما عندي غيرها » فقال له الصميل « وما هي » قال

« ان عدوت اتيان ابي عطاء وشتت امرك به لم يتم امرنا وهلكنا وان انت قصدته لم

ينظر في شيء مما سلف بينكما وحركته الحمية لك فأجابه الى ما تريد » فقال له

الصميل « أصبت الرأي » وخرج من ليلته وقام أبو عطاء في نصرته على ما قدره

العبدي وعمد الصميل بعد ذلك الى ثوابه بن سلامه الجذامي أحد أشرف العيين

وسادتهم وكان ساكناً بمورور وكان منحرفاً عن أبي الخطار فأجابهما في القيام

والتقدم على المضربة

والواقع أن اغضاب الصميل كان خطأ سياسياً كبيراً تورط فيه أبو الخطار لان

الصميل كان رجلاً يحسب لعداوته حساب كبير، وقد قدم الصميل الاندلس في طلبه

بلج مع امداد أهل الشام وكان أصله من الكوفة وهو حفيد شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي، وكان المختار قد قتل شمراً بعد ذلك فارتحل ولده عن الكوفة فصاروا بالجزيرة، فلما جند جند قنسرين في الحملة التي قادها كاثوم بن عياض صار الصميل فيه ورأس بالاندلس ودانت له قيس وفاقهم بالنجدة والسخاء

وكان الصميل رجلاً دافق الحبوية جيش الصدر بمراحل الاهواء لا تخرج في ذهنه فكرة سامية زينة ولا تعرف السبيل الى نفسه العواطف اللينة الرقيقة والمشاعر الرفيعة المهدبة، وكان ما كراً حولاً عاكفاً على الحمر صباً بالنساء، وكان جاهلاً بالقرآن فاتر العاطفة الدينية فهو جدير بأن يكون جده شمر الذي لم يعف عن قتل الحسين ارضاءً لبني أمية وحرصاً على حطام الدنيا، وكان امياً نزر المعرفة محدود الافق مرّاً يوماً بمعلم صبيان وهو يتلو آية « وتلك الايام نداؤها بين الناس » فعجب عند سماعها ووقف يتفهم والتفت الى المعلم وقال له « اكذا نزلت الآية؟ » فأجابته « نعم » فقال « أرى والله أن سبشركنا في هذا الامر العبيد والاراذل والسفلة » وكان ينشط وبشور وتكثر حركته عندما تستبطن اهواؤه فاذا هدأت ثورة عواطفه طوده التبطل والفتور والاخلاد الى اللهو وكان الصميل مع ذلك جذاب الشخصية ملماً بأداب المجتمع غمر البديهة بارع الحديث

وبلغ ابا الخطار ما كان من امر الصميل وتأليه القوم عليه واجتماعهم في شدونة فغزاهم في جماعة اهل الاندلس ولقيه نوابه بناحية وادي لكة فانهزم ابو الخطار وقتل قليل من اصحابه وحصل اسيراً في ايديهم فأرادوا قتله ثم ارجوه وأوثقوه وأقبلوا به الى قرطبة وذلك سنة ١٢٧ هـ . بعد سنتين من ولايته وولي الاندلس نوابه وقام بأمره كله الصميل واجتمع عليه اهل الاندلس وهرب ابو الخطار من حبسه بمساعدة

قومه وقام بمحاولة لاسترداد سلطانه واكتمه لم يوفق فيها ولم تشتد العجبة في نصرته
 لان ثوابه نفسه كان منهم وخاطب اهل الاندلس عبد الرحمن بن حبيب صاحب
 القيروان في امر ثوابه فكتب اليه بعهد الاندلس ومات ثوابه بعد سنة واشهر من
 ولايته سنة ١٢٩هـ. فعادت الفوضى وغام الجؤ وتنازع على الولاية زعيان من العجبة
 وهما عمرو بن ثوابه ويحيى بن حريث، وكان عمرو يرى نفسه وارثاً للولاية بعد موت
 ابيه ثوابه. وكان يحيى بن حريث شديد الكراهة للشاميين ولم يكن الصميل وهو
 يدري نزغته ليكتمه من الولاية وطارض الصميل كذلك في ولاية عمرو بن ثوابه ولم
 يطمح الصميل ببصره الى الولاية لانه كان يعرف تكاليفها ويعلم جيد العلم ان قومه
 من القيسية أضعف منه من ان يحموا ظهره ويقوموا دعائم ولايته ولذا كان يرسي الى
 اختيار حاكم مسلوب الارادة سهل الانقياد ليكون طوع اشارته وقد اصاب ذلك في
 يوسف بن عبد الرحمن الفهري فقد كان يوسف رجلاً قريب الغور مجذب الفكر
 مخلوع الانياب وكان بلاؤه في الجهاد ونجافيه عن الشغب والدسائس وانحداره من
 صلب عقبة بن نافع ومكانة قبيلته وكبر سنه تجعل اهل الاندلس يرحبون بولايته وقد
 ولد يوسف بالقيروان ودخل ابوه عبد الرحمن بن حبيب الاندلس ثم عاد الى افريقية
 وهرب عنه ابنه يوسف هذا من افريقية الى الاندلس مغاضباً له فهوى الاندلس
 واستوطنها وساد بها، ولما تقلد يوسف ولاية الاندلس كان في السابعة والخمسين من
 عمره، واصبح الصميل هو الحاكم الحقيقي للاندلس وكان يوسف طوع يده بسيره
 كيف شاء، ولما اجتمع اهل الاندلس على يوسف تركوا كورة رية ليحيى بن حريث
 نألفاً له وتمرجاً من الشقاق. فلما استقام الامر ليوسف لم يلبث ان غدر بابن حريث،
 وذلك بسبب تحريض الصميل الذي كان يريد ان يتحدى البيانية وعزله عن كورة رية

فغضب ابن حريث وكان ابا الخطار الذي كان يترقب الفرص ليستعيد نفوذه وينتقم
لنفسه وقال ابو الخطار « انا الامير » وقال له ابن حريث « بل انا اقوم بالامر لان
قومي اكثر من قومك » فلما رأَت قضاة ما يدعوا اليه ابن حريث أحبوا جمع
كلمة اليمن فأجابوا ابن حريث وقدموه وأصفقت يمن الاندلس حميرها ومذحجها وكندتها
وقضاعتها وأحازت المضربة الى يوسف والصميل ، وكان يخرج الجيران فيودع بعضهم
بعضاً توديع الاصفياء المنتحابين لينتحيق كل واحد منهم بقومه ويتلاقوا في ساحة القتال
اعداء متحاربين

وزحف ابن حريث وابو الخطار الى يوسف والصميل بقرطبة ، واقبلا حتى
نزلا على نهر قرطبة من الناحية القبليية بقريية شقندة ، وعبر يوسف والصميل النهر
اليها بمن معهما والتفوا حين صلوا الصبح وتطاعنوا حتى تفصفت الرماح ، وتضاربوا
بالسيوف حتى تقطعت السيوف ، ثم تقابضوا بالايدي والشعور ، ولم يكن
القوم بكثير وانما كانوا زهرة أشرف العرب وصفوة شجعانهم وكانت الموقعة أشبه
بمبارزة واسعة النطاق منها بحرب ، وكانوا متقاربين في العدد الا ان اليمن كانوا أكثر
قليلاً ، فلما أعياء بعضهم بعضاً توافقوا يضرب بعضهم وجوه بعض بالقسي والجداب ويحتسي
بعضهم التراب على بعض ودنا المساء دون ان ترجح كفة فريق على فريق ، ومن المحتمل
ان يكون الصميل قد استشعر الهزيمة وخشي مغبتها حين التفت الى يوسف وقال له
« ما وفقنا اذ خلفنا جنداً نحن منهم في غفلة » فقال له يوسف « ومن هم » فقال
الصميل « أهل السوق بقرطبة » وكان غريباً ان يستنجد رجل عربي صميم من غرار
الصميل بأهل السوق من قصايين وأصحاب صناعات ، وراقت الفكرة يوسف فرداً
اليهم مولاة خالد بن يزيد يستجيبهم ويدعوهم الى الميدان فتابوا اليه وخرجوا في نحو

اربعمائة رجل من أنجادهم يحملون الحشب والعصي ومع قليل منهم السيف والمزراق
 وكان القصابون يحملون سكاكينهم وجاءوا الى قوم قد برح بهم اللغوب وبلغ منهم الاعياء
 كل مبلغ فلم تبق فيهم فضلة لكفاح فأوسعوم قتلاً وأسروا منهم كثيرين وأسروا ابا
 الخطار وابن حريث وكانا الاميرين. وكان ابن حريث لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون
 أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحي التي بموضع بيع الحشب فلما أسروا أبا الخطار
 وهموا بقتله أراد ان يشاركه في مصيره ابن حريث وكان أبصره وهو يخفي فقال —
 لهم « ليس علي قوت وان كنتم عندكم ابن السوداء ابن حريث » ودل عليه فأخرج وكان
 من أقوال ابن حريث الماثورة في كراهة أهل الشام قوله « لو ان دماء أهل الشام
 جمعت لي في قدح لشربتها » فلما رآه ابو الخطار سخر منه وقال له « يا ابن
 السوداء هل بقي في قدحك شيء لم تشربه » ؟ وقدما وقتلاً ثم أتى بسائر الاسرى
 وقد لهم الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة وجرّد من نفسه خصماً
 وحكماً وجلاداً وأطار رؤوس سبعين رجلاً منهم واجتوى ابو عطاء هذا المنظر
 الوحشي واستفزع هذه المذبحة فقام الى الصميل وقال له « يا أبا جوشن راجع سيفك
 وأغمده » فأجابهُ الصميل وقد استطاره سعار الانتقام واستهوته لذة التشفي « اقم
 أبا عطاء فهذا عزك وعز قومك » ولم يغمد السيف فجلس ابا عطاء ممنعاً ولما طود
 الصميل أفاعيله لم يستطع ابو عطاء الصبر على رؤية ما يعانیه هؤلاء البائسون وكانت
 غاليته من اليمنيين السوريين ولمح ابو عطاء وراء مسلك الصميل أثر عداوة أهل
 العراق لاهل الشام فنهض غاضباً وقال للصميل « والله ان تقتلنا الا بعداوة صفين،
 لتكفن او لا دعون بدعوة شامية » وخشي الصميل استفحال الشر فأغمد سيفه
 مكرهاً وأمن الناس على يد ابي العطاء بعد هذا البلاء العظيم

وأصبح يوسف بعد موقعة شقندة حاكم الاندلس المطلق ، ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد الصميل ، وكان يوسف مغلول اليد منهوب النفوذ مذتناً لامر الصميل فكبر عليه ذلك وحاول الخلاص من الصميل فاختره حاكماً لسرقسطة وطابق هذا الاختيار هوى الصميل لان أكثر سكان سرقسطة والاقليم التي حولها من البنية ومن ثم فالفرصة هناك سانحة ليرتوي غليله من اضطهادهم والتكبل بهم فأتى سرقسطة في مائتي رجل من قريش ومن كان معه من غلمانِه وحشمِه ومواليه فقال بها ملكاً وثروة وافرة ، واشتد الفحط بأهل الاندلس وعضتهم الفاقة فكان يقد عليه محايج الناس فيعطيهم الاموال والرقيق ولم يأت به صدق ولا عدو فخرمه وأقام بسرقسطة طيلة اعوام الشدائد التي توالى على الاندلس طاملاً على كسف الغمة وتفريج الازمة بكرمه السابغ وعطفه الشامل كأن الحن الشديدة والمجاطات الموبقة التي توالى على الاندلس خلقت منه شخصاً آخر غير ذلك المنتقم الجبار الواقع في السماء ، ولو ساد التفاهم وتم الوفاق بين القيسية والبنية لأمكن اسبانيا ان تحظى بأيام مليئة بالصفاء بعد تلك الخلافات المتأججة والمعارك الحامية ، ولكن العداوة القبلية كانت أشد تاصلاً وأقوى مراساً من ان يكبحها العقل او تطامن منها المصلحة العامة ، وكان البينيون لا يطبقون الصبر على احتمال نير القيسية وكانوا يضربون الوثوب عليهم عند اول فرصة لاستعادة نفوذهم ، وكان بمطف على قضيتهم ويشاركهم في تدميرهم بعض الفرشيين الذين ساءهم ان يحكم اسبانيا رجل من الفهريين ، وكان المتوقع والمأمول في هذه الحالة ان يتم التحالف بين الحزبين المتدمرين ولم يطل تنظر ذلك فقد نبغ في قرطبة شاب شريف من بني عبد الدار يقال له طامر وكان متوثب النفس بعيد الطموح وكان يلي الصوائف التي تجاهد المسيحيين في شمال اسبانيا فحسده يوسف وخافه على نفوذه فمزله فقال منه ذلك

وأثار حفيظته وحاول ان ينتقم لنفسه وطمع في الولاية وأراد ان يستغل تدمير البنية
وتجمعهم تحت لوأته فادعى ان الخليفة العباسي أرسل اليه سجلاً بالولاية على الاندلس
وبدأ حركته بتشديد حصن في ضيعة بملكها في غرب قرطبة وكان في نيته عند اتمام
بناء الحصن ان يغاور يوسف حتى يأتيه امداد البنية المتحالفين معه ، وفطن يوسف
لتزايد قوته واقبال الناس عليه فلم يشأ ان يخمد حركته قبل مشاوره الصميل في أمره
فكتب اليه يلمعه بما تبدل من أمر عامر فأجابه الصميل بشجعه على قتله وكان عامر
لا يخفى عليه شيء من سر يوسف فخرج هارباً الى سرقسطة حيث الصميل ولم يرَ أمانع
لنفسه منها لكثرة اليمين فيها ، وعند وصوله الى سرقسطة كان هناك قرشي آخر من بني
زهرة قد رفع علم الثورة فمت اليه عامر بصلته القرابة ووحدة الغاية وأجما على ائارة
البربر والبنية خلج يوسف والصميل واتهماهما باغتصاب الولاية التي أوحى
الخليفة في سجله باسنادها الى عامر وأجابهما رجال من اليمين وناس من البربر وبعث
الصميل اليهما خيلاً ورجالاً فهزماهما واجتمع لهما ملا من الناس فأقبلا حتى حصرا الصميل
في مدينة سرقسطة فكتب الى يوسف يسأله امداده فلم يجد في الناس منفضاً وتقاعد
عن تحريكهم وذلك في سنة ٥١٣٦ هـ ، ولما أبطأ عنه يوسف وخاف ان يستنزل كتب الى
قومه من قيس يعظم عليهم حقه ويسألهم امداده ويعلمهم انه يجزيء من المدد بالقليل
فقام في ذلك جماعة من كلاب ومحارب وسليم وهوازن وحف معهم من موالي بني
امية بالاندلس ثلاثون فارساً على رأسهم ابو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبدالله بن
خالد وكانا يتواليان لواء بني امية يعقبان ذلك وخرج معهما يوسف بن بخت .
وقد حضروا كلهم شقندة مع يوسف والصميل وأظهروا صبراً محموداً وبلاءً عظيماً رفع
مكاثم في نفس يوسف والصميل وجميع قيس . ولما بلغوا طليطلة بلغهم ان الحصار قد

أضر بالصميل وخافوا ان يلتي يده اذا بئس من المدد فبهلك فمجلوا اليه رسولا من قبلهم وقالوا ادخل في جملة خيول عامر والزهري التي تقابل السور فارم هذه الحجارة وبعثوا معه حجارة وكتبوا فيها بيتي شعر وهما : —

تبشر بالسلامة يا جدار اناك الفوث وانقطع الحصار

أتتك بنات اعوج ملجعات عليها الاكرمون وهم زار

فسار الرسول حتى فعل فلما واقمت الحجارة المدينة امر الصميل ان يقرأ ما فيها فلما سمع ما فيها قال لمن معه « أبشروا قومي ورب الكعبة » وتمسك بالحصن وقوى ومضى القوم في طريقهم ولما أشرفوا على سرقسطة انكشف عامر والزهري وخرج الصميل فلتفاهم بالرحب وأعطاهم العطاء الجزيل ، وقد اشترك موالي الامويين في هذه الحملة لانهم كانوا يريدون ان يفضوا الى الصميل بأمر كبير الاهمية خطير الشأن ترك تفصيله للفصل القادم.

أَوْلِيَّةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

نفسية الامويين — وراثة عبد الرحمن ومولده
ونشأته — رحلته الى افريقية — بأسه من
تأسيس ملك بافريقية — دخول بدر الاندلس
واتصاله بزعمي الشيعة الاموية بها — استشارة
الشيعة الاموية الصميل في امر عبد الرحمن —
دخول عبد الرحمن الاندلس

إذا ابتعد المسافر عن مدينة أخذت تظهر له من بعيد الامكنة العالية منها ، وكلما
أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يرى إلا أكثر الامكنة اصعاداً في الجو ،
كذلك الناظر في تاريخ الامة العربية في عهد الاسلام كلما ابتعدت بنا عنها قافلة الزمن
وتلفت الركب الى الوراء صرنا لا نلمح إلا الشخصيات البارزة المتسامية اللامحة في
الجو التاريخي للماضي ، وبمكنتنا ان نرد أكثر ما نلمحه من تلك الشخصيات الى يفتين
لعبا اكبر دور في تاريخ العرب السياسي وهما بنو أمية وبنو هاشم ، وهما الشعبان
التابعتان من صلب عبد مناف ، كان بنو هاشم في مكة سدنة الكعبة واصحاب السلطة
الدينية ، اما بنو أمية فكانوا اصحاب السيادة السياسية وذوي الجاه العريض والثناء
الجم ، وكانت قوافل تجارتهم دائمة الارتمال بين مكة والشام حيث تأثير الحضارة
البيزنطية مستفيض ، وقد أكسبتهم التجارة معرفة بالحياة وخبرة بأحوال النفوس ،
وكانت حماية التجارة تستلزم شحذ مواهبهم الحربية ، وكان تفوذهم السياسي في
مكة ينضج فيهم ملكات الرياسة وتدير الامور وقد كانوا أقدر من بني
هاشم على تصريف الاحوال الدنيوية واحتمال أعباء الحكم ، وقد قوى

فيهم نفوذهم ورحلتهم للشأم حب الاستماع بلذات الحياة والميل الى فاخر العيش ، كما زادهم وفرة الثروة اقداماً وصلفاً ، وكانوا شديدي التمسك بالارض لئلا يس لهم احلام متطايرة ولا خواطر مخلقة ، والحياة في نظرهم مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة فهم لا ينظرون الى الدنيا في ضوء فكرة مقدسة أو في ظل مبدأ سام ، وليست نفوسهم من تلك النفوس التي تحاول أبدأ أن تقيم الحياة البشرية الزائلة على أساس من الابدية الباقية وتحرص على أن تستمسك بصخرة من اليقين في بحر الحياة القلب ، بل كانوا يأخذون الحياة كما هي ويقبلونها على علانها ويعملون على الاستفادة من فرصها والاستزادة من متعها ، والحياة في نظرهم ميدان لنفوذهم وبسط سلطتهم وتمديد شخصيتهم وتمسك للقلبة والاستعلاء واحراز الغايات واشباع الشهوات ، وقد قاوموا الاسلام في أول نشأته وكانوا أشد أعداء صاحب الرسالة حرذا عليه ونالوه بألوان من الاذى والاضطهاد شأن الارستقراطية في عداوتها للنظم الجديدة ومستحدث الافكار خشية أن تزحزح عن مركزها وتفقد نفوذها ، ولكنهم أدركوا بفرزة الرجال العمليين أن اليوم للاسلام فلانوا للمصافة وتكيفوا مع الظروف ، وبمهاره فائقة وكياسة عظيمة تمكنوا من تحويل تيار الاسلام الى مصلحتهم واعلاء شأن دينهم وكانوا على ما بهم من قسوة وصرامة كرماء خبراء باجتناب القلوب وكأثم خلقوا بطبيعتهم ليحكموا ويسودوا ، وقد عاشوا في دمشق أحفل مدن الشرق اذ ذاك بالافتنان في أسباب الترف وهم بطبيعتهم الصحراوية من ذوي الشهوات الملتببة فتغلبت شخصيتهم القوية ورجولتهم التامة على ما حولهم من أسباب الهدم ودواعي الاستغواء الى ان عمقت بطون نساءهم عن مثل معاوية ومروان وعبد الملك ولم تجد الا بمثل يزيد صاحب حبابة والوليد صاحب أبي قيس ، وأصابت الدعوة العباسية التي نظمت بدقة

عظيمة وفطنة منازة من ضعف أبناء الامويين مجالاً للانتشار والاشتداد فلما جاء
الخليفة المنكود الحظ مروان بن محمد وكان فيه بقية من رجولة الامويين وشدة
نهوضهم وسعة حيلهم كانت قد كثرت الفتوق وساءت الاحوال واستعصى الداء فجاهد
مستبشراً مستبسلاً حتى قضت على نفوذه معركة الزاب وذهبت بدولة الامويين ، وقد
كان عمر عبد الرحمن عند زول هذه النكبة بقومه يقرب من العشرين

وقد ولد عبد الرحمن سنة ١١٣ هـ . بدير حنا من أعمال دمشق وأمه بربرية اسمها
راح مثل أم معاصره العظيم وضريبه في الفحولة والافتقار والمكيا فيلية أبي جعفر
المنصور ، ولعل هذا يفسر لنا شيئاً من سر التشابه بين أخلاق الرجلين ، وقد مات
أبوه معاوية في عهد جده هشام وقد اشتد جزع الخليفة هشام على معاوية هذا مع
ما عرف عنه من قسوة في الطبع وجفاء في الخلق ، وكان من بواعث عطفه على
الكهيت الشاعر استجارته بقبره ، وقد كان رشحه للخلافة من بعده ، وقد حدث لعبد الرحمن
في ابان ترعرعه حادثة تركت أراً في نفسه عميقاً ، وذلك أنه حمل مع اخوته الى
الرصافة حيث كان يقيم جده هشام ، فلما كانوا وقوفاً على دوابهم ازاء الباب اذ أقبل
مسلمة بن عبد الملك الامير الرضي الخلق نصير الادباء وكان معروفاً بالفراسة واستطلاع
الغيوب ولما علم ان الصبية صفار معاوية اغرورقت عيناه بالدمع ثم دطام الاثنين
فالاثنين حتى قدم له عبد الرحمن فأخذه وقبله وقال للقيم هاته وانزله من على دابته
وجعله امامه واخذ يقبله ويبكي بكاء شديداً وشغل به عن سائر اخوته ، وبينما هما
كذلك خرج هشام فلما رأى مسلمة قال ما هذا يا أبا سعيد فقال مسلمة « بني لابي
المغيرة رحمه الله » ثم دنا من هشام وقال له بصوت سمعه عبد الرحمن « قد تدانى
الامر هو هذا » فقال هشام « اهو » فقال له مسلمة « اي والله وقد عرفت العلامات

والامارات بوجهه وعنقه » من هذا اليوم صار جده يتعمده بالصلة في كل شهر دون
سائر اخوته ، وقد كانت كلمات مسلمة دائمة الرنين في اذن عبد الرحمن اشهرة مسلمة
بالنجم وكشف مخبات الغيب ، وقد كانت الدعوة العباسية تسير في خفاء وتكتم وقد
تسامع بها الامويون ولكن دعاتها بالغوا في اخفاء امرهم ولذا صار الخلفاء يشعرون
بخطر يهدد كيانهم وينذر بوخامة العاقبة وسوء المنقلب ولكنهم لا يعرفون كيف
يتبعون اسبابه ويتعرفون مصدره ويحسمون علته وليس من المستغرب في مثل هذه
الحالة التجاؤم الى العرافين والمنجمين ليعرفوا عن انفسهم ألم الشك ووحشة الريبة
ويستمدوا الثقة والطمأنينة ، وكان في العقل الاموي خاصة ميل الى التصديق بالنجم
والاعتقاد بالفرائب والحفايا لقرب الامويين من البداوة وهذه النزعة ظاهرة في حياة
عبد الرحمن ظهوراً جلياً رغم قوة عقله وصحة حكمه على الاشياء X

وقد ندرّب عبد الرحمن من اول نشأته على الاعمال الحربية لان سني الاضطراب
التي مرت بالدولة الاموية في اواخر عهدها كانت تستدعي اشتراك الامراء في الجيش ،
لاخذ الثورات وفتح الفتن ، وخاض عبد الرحمن كبار رجال الدولة وأشرف على سير
الاعمال في ديوان الخليفة وكان يفوق الجميع في استعمال السلاح ومطاردة الصيد كما
يرجع عليهم من الناحية العقلية والحلقية

ولما تمت كلمة العباسيين على اثر هزيمة الزاب اخذوا يتبعون اثر بني أمية وأعملوا فيهم
القتل والتمثيل ولم يتورعوا عن قتل النساء كما فعلوا بالاميرة عبدة بنت هشام ففرّ بنو
أمية الى اطراف البلاد واستخفوا ، وخشي العباسيون ضياع الفرصة وكانوا لا يريدون
الابقاء على احد منهم فركنوا الى الحيلة وأعلنوا في طول البلاد وعرضها اماناً كاذباً
لبنى أمية ، فخدع اكثرهم واقبلوا يسمون الى الشبكة التي نصبها لهم العباسيون ، وكان

عبد الرحمن بقم مع اخيه يحيى على مقربة من الموضع الذي عسكر فيه صالح بن علي
لنلقي الامويين ، فلما قرب الميعاد المضروب ونوافى بنو أمية الى صالح تربت يحيى عن
الذهاب لشك خالجه وأرسل رسولا من قبله يستطلع حالتهم فوافق الرسول القوم
بقتلون فعاد مسرعاً الى سيده الذي أخذته الدهشة وامتزج عليه الامر ولم يتفق له
هرب حتى قربت الخيل من القرية وغشي وقتل ، ولحسن حظ الامير عبد الرحمن انه
كان في ذلك اليوم غائباً في الصيد ، ولما وافاه الخبر وقد أقبل المساء استتر في بركة الليل
واوصى ان يتبعه اختاه ام الاصبع وامة الرحمن وابنه سليمان واخوه الصغير الى منزل
له في قرية قريبة من الفرات ، ولما وصل القرية جاءته ثائله وكان لا ينوي اطالة
المكث وانما كان يريد التجهز للرحلة الى أفريقية

ومن ذلك الوقت تبدي قصة عبد الرحمن العجبية وروايته الحافلة بمدحشات

الوقائع وفادد المفاجآت والتي نرى فيها تيميس الحظ وابتسامه وإدباره وإقباله وتعاسر
الايام وتياسرها ، وانها لرواية حقيقية مبوبة الفصول متعددة المناظر مختلفة الشخصيات
يتضام الى جانبها الكثير من بارع روايات الخيال ، ولنترك عبد الرحمن نفسه بقص
علينا أحد الفصول الاولى لتلك الرواية ، قال « اني لجالس يوماً في تلك القرية في
ظلمة بيت تواريث فيه وأنا شديد الهمد ومعني خرقه سوداء أمسح بها قذى عيني
وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي وهو يومئذ ابن أربع سنين او نحوها اذ دخل
الصبي من باب البيت فرعاً باكباً فأهوى الى حجري فجعلت أدفعه لما كان بي ويأبني
الألتعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع فخرجت لأنظر فاذا بالروع
قد نزل بالقرية ونظرت فاذا بالرايات السود عليها منحطة وأخ لي حديث السن كان
معني يشند هارباً ويقول لي انجأ يا أخي فهذه رايات المسودة فصرمت يدي على

دنانير تناواتها ونجوت بنفسي والصبي أخي ممي وأعلمت اخواني بمتوجهي ومكان
مقصدتي ، وأمرتهم ان ياحقني وولاي بدر مهن ان سلمت وخرجت فكنت في
موضع ناء عن القرية فما كان الا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم نجد أثراً
ومضيت ولحقني بدر فأبنت رجلاً من معارفي بشط الفرات فأمرته ان يبتاع لي دواب
وما يصلح لسفري فدل علي عبد سوء له العامل فأراعنا الا جلبة الخيل نحفزنا
نخرجنا نشدد على أرجلتنا وأبصرتنا الخيل فدخلنا بين أجمة على الفرات واستدارت
الخيل نخرجنا وقد أحاطت بالاجمة فتبادرنا وسبقناها الى الفرات فترامينا فيه وأقبلت
الخيل فصاحوا علينا من الشط ارجعوا لا بأس عليكما فسبحت حائناً لنفسي وكنت
أحسن السبح وسبح الغلام أخي فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف
الفرات وفصر أخي ودهش فألقت اليه لأقوي من قلبه وأصبح عليه ليلحقني فاذا
هو لما سمع تأميرهم اياه أصغى اليهم وهم يخذعونهُ عن نفسه وخاف الفرق فهرب من
الفرق الى الموت فناديته تقتل يا أخي الي الي فلم بسمعي واغتر بأمانهم وخشي الفرق
فاستعجل الانقلاب نحوهم وقطعت أنا الفرات وبعضهم قدمم بالتجرؤ للسباحة في
أثري فاستكفه اصحابه عن ذلك فتركوني ثم قدموا الصبي أخي الذي صار اليهم بالامان
فضربوا عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة فاحتملت فيه
ثكلاً ملائي مخافة ومضيت الى وجهي احسب أنني طائر وأنا ساع على قدمي فلجأت
الى غبضة أشبه فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ثم خرجت هارباً أوام المغرب حتى
وصلت الى افريقية »

فرَّ عبد الرحمن من هذا المأزق الذي وصفه لنا الى فلسطين حيث لحقه مولا
بدر وسالم خادم شقيقته أم الاصبع ومعهما جواهر ودنانير للتفقة وسار الثلاثة قاصدين

* افريقية حيث النفوذ العباسي قليل الامتداد ومروا بمصر ونزل عبد الرحمن ببلاد
عبد الرحمن بن حبيب الفهري أمير المغرب وهو الذي فر من الاندلس بعد دخول ابي
الخطار اليها وتقلبت عليه الاحوال حتى انتزع امارة المغرب— وقد سبقه اليه فل من
بني أمية ، وكان عند ابن حبيب يهودي حدثاني قد صحب مسلمة بن عبد الملك
وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من ابناء ملوك القوم
واسمه عبد الرحمن وهو ذو ضفيرتين يملك الاندلس ويورثها عقبه ، فالتخذ الفهري
عند ذلك ضفيرتين رجا ان تناله الرواية ، فلما جيء بعبد الرحمن ونظر الى ضفيرته
قال لليهودي « ويحك هذا هو وأنا قاتله » ، وكان اليهودي يضمر الولاية للامويين
ويرجي خيراً من وراء عبد الرحمن الاموي ويحرص على بقاءه وساء ان تكون نبوءته
سبباً لقتله وواته في هذا الموقف الضنك بديته الحاضرة فأجاب ابن حبيب قائلاً « انك
ان قتلته فما هو به ولحك ائمه او غلبت على تركه انه لو فان القضاء لا يغال « فأعجب
ابن حبيب بقوة حجة اليهودي وأعرض عن قتل عبد الرحمن وفي نيته ان يعود الى الفتنك به
في فرصة أخرى وثقل فل بني أمية عليه فطرد كثيراً منهم مخافة طموحهم وتجنى على ابنين
للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلها وأخذ مالا كان مع اسمعيل بن ابان بن
عبد العزيز وغلبه على احتيه فتزوجها بكرهه وطلب عبد الرحمن فخذره احد اصدقائه
في الوقت المناسب فاستخفى وفر من وجهه وأخذت تقاذفه الانحاء وتذبذب به البلاد
ولاذ بأشد جهات افريقية نبواً عن العمران واستعصاء على الحضارة وجعل عبد الرحمن
ابن حبيب جائزة كبيرة لمن يأتي برأسه فالتجأ الى البدو حيث كانت رسل ابن حبيب
تقتني اثره ، وفوجيء مرة نازلاً عند احد شيوخ البربر ويدعى وانسوس فنجأته امرأته
تكفات البربرية تحت ثيابها ، وقد صبر عبد الرحمن في غضون ذلك صبراً جميلاً واحتمل

شظف البيش وعضاضة لبن التياق والتبلغ بنحز الشعيردون تدمر واكتئاب هوأ كسبته
رقة اخلاقه ورجاحة عقله وشرف مناسبه وصبره على اختبار المحن وغير الدهر وبراعته
في الصيد احترام معاشريه من البربر المتجافين عن الحضارة ، وفي اشد اوقات حياته
ظلاماً واقفاراً كان لا يزال يلتمع في أفق نفسه نجم الامل الوقاد وتناجيه أطاعه بار تقاء
عرش افريقية) ولم ينطفئ في ناظره ضوء ذلك الامل رغم الزلازل والاعاصير وسحب
الاكدار والخاوف التي كانت تتكاثف حوله وتراكب في جو مستقبله وافق حياته
وكانت بجهوداته لا تزال عقيمة غير مثمرة وحاكم افريقية ما ينفك يبث عيونهُ ويجدد
في مطاردته) وبعد ان جول عبد الرحمن في مختلف انحاء افريقية نزل ضيفاً على قبيلة
زناتة وهم أخواله وكانت تقيم في جنوب مدينة سبتة على مقربة من البحر المتوسط
كان عبد الرحمن في ذلك الوقت طريداً مشرداً جواً خاوي الوفاض مهمل
الاثواب غامض الشأن غير موفق المسمى ولكنه مع ذلك لم يكن بالرجل الفاضل المكسر
الهابية الذي يهزمه الفشل وتهل من جوانبه الحوادث وقد كان هذا الشاب فلتة من
فلتات عصره في قوة الزيمة وبعد الهمة ولم يكن من شأنه ولا من شأن قوميه
الاخلاق الى الضعة والاستكانة الى الحمول فقد كانت تأتي له ذلك ضلعة في خلق
الامويين ونوع من التفاؤل والاستبشار كما من في نفسه كانت تفجره ذكرى نبوءة
مسلمة كلما لج به اليأس وألح عليه الاكتئاب والتخاذل ، وكان يستبسط الحيل ويرسم
الخطط ويدبر الدسائس ويعمل على كسب الانتصار لينزع ملك افريقية من يد ابن
حبيب ، ولكن طول التجربة وخبرته العريضة بأحوال البربر وبقظة ابن حبيب
جعلته يثني عن الامل الى ناحية الاندلس فصار يترصد أخبارها ويتسقط حوادثها
وافتقد في هذا الظرف سالماً مولي شقيقته فقد كان طالماً بالاندلس ولكنه رق عن

احتمال تلك الحياة المحتملة المتقلبة وأخذ يترقب الفرص ويتصيد المآذير وانفق انه كان
راقداً ودخل على عبد الرحمن بعرض بني عمه فصاح به فلم ينتبه فأمر عبد الرحمن بجماع
فصحب على وجهه فامتعض وفارق عبد الرحمن ورجع الى شقيقته ام الاصبع بالشام
وشق على عبد الرحمن فراقه ، وكانت الفوضى السائدة بالاندلس وضعف حكماها وكثرة
الثورات تفسح له الامل وتعمده بنصر ميين ، ولما اختمرت الفكرة في ذهنه ارسل
مولاه بدرأ الى الاندلس وزوَّده بكتاب الى زعيمى الشيعة الاموية بها ، وكانت موالى
المروانية المدونة بالاندلس في ذلك الاوان ما بين الاربعائة والخمسةائة وكانت لهم جمة
وكانت رياستهم الى شخصين وهما ابو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد وهما
من موالى عثمان بن عفان ، وكانا يتواليان لواء بني أمية بمتقبان حملة ورياسة جند الشام
النازليين بكورة البيرة ، وذكر عبد الرحمن أيادي سلفه من بني أمية وسببه بهم ووصف
لهم ما اصابه من الكوارث وقوارع الخطوب وما صنعه به عبد الرحمن بن حبيب
وغدره بقومه وتعقبه لخطواته وأعلمهم انه ان دخل الى يوسف لم يأمن على نفسه
وعرض انه انما يريد الاعتزاز بهم وان يمنموه وان تهباً له ما فيه طلب سلطان الاندلس
ان يعلموه وعرفهم ان الامر كان لجده هشام فهو حقيق بوراتنه ووعدهم باعلاء الدرجة
وحسن المنزلة وأشار عليهم بالاستفادة من الشقاق والاحنة بين البينية والمضربة
ولما وصل بدر اسبانيا ارسل الخطاب الى عبيد الله وابي خالد زعيمى الامويين ،
فلما قرأه هذان الزعيمان تواعدا على يوم يعقدان فيه اجتماعاً يحضره وجوه الشيعة
الاموية للمداولة في موضوع الكتاب ، وفي اليوم الموعد حضر أعيان الشيعة وعلى
رأهم يوسف بن بخت وكان من انجادهم وتبادلوا الرأي فيما عرضه عبد الرحمن وتناولوا
بحث الحطة التي يسلكونها واسنبنان لهم ان الامر رغم ما يحفه من صباب وما يحقد به

الكتاب

من اخطار جدير^ه بالمحاولة وكان يعطفهم على قضية عبد الرحمن شعور الموالي بواجبهم نحو سادتهم فقد كانت صلة المولى بسيدته شديدة الشبه برابطة القرابة وكان فرضاً على اولاد الموالي ان يخلصوا لاولاد من اعتقوا رقابهم ومنحوم الحرية والخلص ، وقد كان الرأي الذي انتهوا اليه لا يخلو من التأثير بدافع المصلحة لانه اذا عاد السلطان الى الامويين واصبحت مناصب الدولة وفقاً عليهم فانهم سيشركون معهم فيها الموالي ، ومن ثم قال سعي لتحويل عبد الرحمن غايته فيه خير لهم واعلاء شأنهم وقدرأوا مشاورة الصميل في الامر قبل تقرير الخطة التي يتبعونها وكان الصميل اذ ذاك مضروباً حوله الحصار في سرقسطة وكان معروفاً انه ناقم على يوسف لتقاعده عن نصرته وكانوا وانقيين في انه لا يظهر على سرهم احداً لمروءته واقفنه ، واجتمع رأيهم على ألا يردوا الى عبد الرحمن جواباً حتى يشاوروا الصميل وكان هذا هو الذي حركهم الى امداد الصميل والاشتراك في الحملة التي قامت بها بعض القبائل المضربة لفك الحصار عنه ، وصحبهم بدر ، وخلا الامويون الثلاثة بالصميل وكاشفوه بامر عبد الرحمن وقالوا له انه مستتر ببلاد البربر وخائف على نفسه وأطمعوه على الكتاب الذي حمه بدر وقالوا له « لا تقدم على رضى ولا سخط الأبرأيك فان ترض أمرأ رضينا وان تسخط سخطناه » وأدرك الصميل خطورة الأمر فقال لهم « دعوني أروى وأنظر » وجمعوا بينه وبين بدر فأعطاه عشرة دنانير وشقة خز ولكنه لم يمهده بشيء .

وانصرف الامويون الى منازلهم ومعهم بدر وقفل الصميل الى قرطبة فوجد يوسف يجهز حملته لمقاتلة الثأرين في سرقسطة وذلك سنة ١٣٧ هـ . وخرج يوسف بالناس وبعث الى زعيم الامويين ابي عثمان وعبد الله بن خالد فقدا عليه فأمرها ان يدعوا رجالها فقال له عبد الله « ليس في القوم نهضة ولا قوة على الخروج وكل من كان فيه

منهض قد نهض الى ابي جوشن فتقطعوا وأهلكهم الله بالشتاء والسفر مع ما نال الناس
من الجهد « فأخرج يوسف اليهما الف دينار وقال لهما « قوياهم بهذه » فقالا له « هم
خمسائة مدون وابن تبلغ هذه منهم » ؟ وأمسكا عن أخذها لقلتها ، ولما خرجا من
حضرة يوسف أجالا الرأي ورأيا ان قبول ذلك المبلغ مما يمينهما فيما يبغيان وان في
وسمهما ان يختلفا الاعذار لتختلف رجالهما عن النهوض مع يوسف فعادا ادراجهما
اليه وأخبراه بقبولهما المال ، ولما حملا الدنانير عادا الى كورة رية وفرقاجزة منها على
الشعبة الاموية تقوية لافرادها واستئلافا لهم ، وخرج يوسف ولم يعرج على شيء ،
فلما بلغ جيان أتاه ابو عثمان وعبد الله وهو نازل على مخاضة الفتح ينتظر تمام الناس
اليه ، فدخل عليه ابو عثمان فقال له يوسف « يا عبيد الله أين موالينا » ؟ فقال
« أصلح الله الامير مواليك ليسوا كغيرهم لا مقام لهم عنك وانما سألوني انظارهم حتى
يبليغ الامير طليطلة ثم يلحقونه بها لعلهم ان يتناولوا شيئاً من جديد شعيرهم » وكانت
سنة ١٣٧ هـ . سنة خلف فصدقه يوسف ولم يهتمه فقال له « ارجع اليهم وليكن منك
عليهم ضاغط » وحضر الامويان رحيل يوسف وودعاه ، وطادا ليودعا الصميل . وكان
الصميل لادمانه الحمر لا يكاد يبيت الا سكران ، فألقياه رافداً ، ولم يستيقظ من
نومه الا بعد ان تحرك الجيش ومضى الناس ولم يبق غيره وغير حشمه فلما خرج
وكانا ينتظرانه قدما اليه فقال لهما « ما نبأكما وما رجعتكما » ؟ فأعلماه بالذي كان من
اذن يوسف ليلحقاه ببني أمية في طليطلة فاستحسن ذلك ، وبعد ان سارا معه حيناً
دنوا منه وقالوا له « أخذنا نفسك » فنعى أصحابه فقالا له « زيد رأيتك في الذي
كنا نشاورك فيه من أمر ابن معاوية فان الرسول لم يبرح » فقال لهما « أما اني
ما أغفلت ذلك ولقد رويت فيه واستخرت الله وكنت الامر فما شاورت فيه قريباً

ولا بعيداً وفاء بما جعلته لكما من ستره وقد رأيت أنه حقيق بنصري حقيق بالامر
فاكتبنا اليه على بركة الله فاني سأحمل هذا الاصلح - يريد يوسف - على ان يتخلى له عن
هذا الامر وبزوجه أم موسى - ابنة يوسف وكانت قد أرملت في تلك الايام من
زوجها قطن بن عبد الملك - على ان يكون واحداً منا فان فعل قبلنا منه وعرفنا
حقه ومنته ويده وان كره هان علينا ان نقرع صلته بسيوفنا « فقبلا يده وشكراه
وانصرفا مسرورين آملين

لم يكن الصميل صاحب تفكير وحزم وليس في طاقته تقليب الامور على وجوهها
والنظر في أعقابها وانما كان صاحب لهو يعتمد فيما يعرض له من الامور على خاطره
السريع وبديته الحاضرة فلما فاجأ الزعمان الامويان بالاستفسار عن الرأي الذي
استقر عليه في مسألة ادخال عبد الرحمن ارنجول الحديث الذي أفضى به اليهما وأبفظ
في نفسيهما آمالاً ضخمة ومطامع بعيدة وادعى انه قد قتل الامر بجنأ وأوسع تفكيراً
ولما خلا بنفسه بعد انصرافهما أدرك خطأه وتسرع ورأى انه لو تم الامر
لعبد الرحمن فانه سيقم ملكاً بالاندلس ويستأثر بالسلطة وحده ويستبد بالامر وفي ذلك
وبال عليه وعلى غيره من رؤوس القبائل ورؤساء المشائر فبادر بارسال احد أتباعه
للسحاق بهما وردهما . ولندع أبا عثمان يروي لنا ما حدث . قال « سرنا عنه ساعة
نحواً من ميل منصرفين فرحين لا نرى الا ان الامر قد تم لنا فاذا نحن بصاح
خلفنا ينادي يا أبا عثمان فنظرنا فاذا وصيف له على فرس فوقنا فقال لنا « يقول أبو
جوشن أقبا حتى آتيكما « فأعظمتنا اتيانه بنفسه لتكون نحن أولى باتيانه ووالله ما نأمنه
ثم توكلنا على الله فسرنا فاذا هو قد أقبل على الكوكب بغاه الابيض وهو يجنح به
فلما رأيناه وحده أمانا وعلنا انه لو أراد مكروهاً رده معه أعواناً فنادانا فدنوننا منه

فقال لنا « أني منذ أنيتموني برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل في ادارة فاستحسننت ما دعوتما اليه ثم كان مني اليكما ما كان فلما فارقتكما رويت فيه فوجدته من قوم — واستمبح القارىء المعذرة بالنيابة عن ابي عثمان في رواية التعبير الآتي الذي استعمله الصبيل ولم يجد أقوى منه في الاعراب عما ساوره من الخاوف — لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأتم في بوله وهذا رجل قد حكمنا عليه مع ما له في أعناقنا والله لو بلغنا بيوتكما ثم رأيت هذا لظننت الآ أنصر حتى أرجع اليكما ثلاثاً أغركا ، وأنا أعلمكما ان أول سيف يسلم عليه سبني فبارك الله لكما في رأبكما ومولاكما » فقال له ابو عثمان « أصلحك الله ما لنا رأي الآ رأيك » فقال « لا تفعلوا فوالله ما يسعكما الآ النظر له فان أحب غير السلطان فله عندي ان يواسيه يوسف وزوجه ويحبوه انطلقا راشدين » ثم انصرف عنا فانقطع رجاؤنا من مضر وريعة بأسرها ورجع رأينا الى اطباء اليمن وادخلهم في رأينا ففعلنا ذلك من فورنا ولم نمر بهاني له بال وثقنا به الآ عرضنا عليه أمر ابن معاوية ودعواته اليه فألفينا قوماً قد وغرت صدورهم يتتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً الى طلب نأرهم ثم رجعنا الى جندنا وقد يسنا من مضر فابتعنا مراكباً ووجهنا فيه احد عشر رجلاً منا مع بدر وأعطينا ثماناً خمسمائة دينار لتكون معه عدة للنفقة عليه ولفدية البربر » ✕

كانت قد مضت شهور على عبد الرحمن يقامي مضض الانتظار ويتشوف الى أخبار بدر وكان موزع النفس بين اليأس والرجاء ففي ذات يوم في مطالع الخريف بعد ان قضى صدر النهار في عجباه فربسة لسأم نهياً للافكار خرج يتمشى على شاطئء ببحر الزقاق ينشد العزاء ويلتمس الهدوء ويقلب الطرف في أمواجه المصطفقة الهدارة ثم آوى الى ناحية مهجورة وجلس وقد علت نفسه الكآبة وتأوبته الذكريات واتالت عليه الخواطر

وأخذ يجبل الفكر في مصيره ومستقبله وهل يظل هكذا يتقلب في مطارح اليبين ومرامي
النوى ويعاني حياة التشرد المضيئة ويرد العيش كدرأد نق المشرب مر المذاق؟ وتداني
المساء ومالت الشمس المغيب وساد الكون ذلك السكون الرهيب الذي يفترا الجسم ويكف
من الطماح ويشيم المطامع والشهوات فترق النفس وتصفو وتستيقظ الروح فهدأت نفس
عبدالرحمن القوية المتمردة وسكنت روحه الفلقة المهمة، ولم يكن عبدالرحمن فلسفي النزعة
لتغريه تلك اللحظة بالاسترسال في التأملات الرفيعة والتفكير في استمرار الحياة ومعميات
الكون فقام بتوضاً ويتأهب للصلاة وحانت منه التفاتة الى ناحية البحر فأبصر مركباً يشق
الموج ويدنو من الساحل واذا برجل يقفز في الماء ويسبح الى الشاطئ واذا بهذا
الرجل مولاه بدر! لم ينتظر هذا الخادم المخلص الامين دنو المركب والقاه مراسيه بل
بادر الى سيده منبسط الاسارير متألق الوجه يحمل اليه بشائر النجاح ومفرح الاخبار
وقص على سيده خلاصة مساعيه، وخرج اليه من السفينة تمام بن علقمة فجرى
عبدالرحمن على طبيعته من التفاؤل فسأله ما اسمك قال تمام فقال له وما كنتك فقال
ابو غالب فقال الله اكبر تم امرنا وغابنا بحول الله تعالى وقدم اليه بدر سائر من في
السفينة. وهم عبدالرحمن بالدخول الى المركب فأقبل البربر وتعرضوا دونه ففرقت فيهم
صلات على أقدارهم ولما صار بداخل المركب أقبلت منهم لم يكن اخذ شيئاً فتعلق
بجبل الهودج ليعقل المركب فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف فقطع يد البربري
فهوى الى اعماق اليم وسارت السفينة من شط افرقية فوق سروات الموج تحمل «مخلص
الاندلس» وقد ازدانت بالاعلام وهب النسيم رطيباً بايل الاذيال وكانت ليلة اضحيانة
قراء ورحب الركب بأمرهم ونجذبوا اطراف الحديث عن الاندلس واحوالها وحاول
عبدالرحمن بذكائه الوقاد ونظيره الناقد ان يستعرض الموقف ويلم بتفاصيله وكان اشد

ما ينجشاه قبل مجيء بدر ان نجيب آماله وتبدد احلامه ولكن الآن طوده الامل
وارفضت عنه المخاوف ودبت فيه حياة جديدة وقد كان يعلم ان طريقه حافل بالمسالك
المنوية والصخور العباء وانهُ سيقنح السبيل الى غايته بين مشنجر الالهواء ومزدحم
الشهوات ولكنه كان كالصارع المدمج الخلق المفتول العضل الجبير بأسرار فنه يسهويه
التأهب للنزول الى الميدان وخوض المعترك ومساجلة الخصوم ولم تطل هذه الرحلة الهائلة
والسفرة القصيرة الواعدة وقد كانت النقود التي وزعت على البربر من بقايا الدنانير التي
أعطاهها يوسف لزعيبي الامويين وهكذا شاءت الاقدار ان تكون تكاليف حضور
عبد الرحمن الى الاندلس من حرّ ماله ليهدم ملكه ويمحو سلطانه واذا تكرر الحظ
للانسان « أته الرزايا من وجوه الفوائد »



تفسير الطريق

عبد الرحمن في الاندلس — المفاوضات
بينه وبين يوسف — انقطاع المفاوضات
والاستعداد للحرب

٤

رسالة الى النبي

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الوهاب
ابن عبد الوهاب بن عبد الوهاب بن عبد الوهاب

ترفت الطبيعة بعد الرحمن واصحابه فأرسلت ريحاً لينة أغانهم على النوجه بمركبهم حتى
حلوا بساحل اليرة في جهة المنكب وذلك في شهر ربيع آخر سنة ١٣٨ هـ . وقت العصر
واستقبل عبد الرحمن بها نقيباه ابو عثمان وابو خالد بحفاوة بالغة وسرور مستفيض ،
وبعد ان أمضى أياماً قلائل في منزل ابي خالد الواقع على مقربة من مدينة لوشة
بين مدينتي اليرة وشدونة انتقل الى حصن عبيد الله في طرش واخذت تقبل عليه
الوفود وتهرع اليه الجموع وعرف عبد الرحمن كيف بضبط اهواءه ويحكم عواطفه
ويبدو في المظهر الملائم لما يطلبه من جسم الامور فقد قدم له عند زوله من البحر
خمر ليسترده به نشاطه ويستجم قوته فرفضه وقال لمن أتوه به «إني محتاج لما يزيد في
عقلي لا لما ينقصه» فعرفوا بذلك قدره وامتلات صدورهم به ثقة و إعجاباً ، وأهديت
له بعد ذلك جارية جميلة فنظر اليها وقال « إن هذه من القلب والعين بمكان وان أنا
اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظللتها وان اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي ولا حاجة
لي بها الآن وردها على صاحبها »
ومضى يوسف حتى أتى طليطلة وظل اياماً ينتظر قدوم موالي الامويين ولما أملاه

الاتظار قال للصميل « ما أرى موالينا لحقوا بنا » وكان الصميل قد ساوره الشك في علة تريتهم وتفاعسهم عن الحضور ولكنه ظل محتفظاً بمصرعهم ، ولما اكثر يوسف من التبرم لتأخرهم وكان الصميل شديد الظمأ الى الانتقام قال له « انطلق ليس مثلك من أقام على مثلهم واني أخاف فوت الفرصة » وكان ذلك بمثابة اصدار امر ليوسف الضعيف الارادة ، فتقدم الجيش حتى ورد سرقسطة ، وخاف الثائرون كثرة عدده فسموا في الصلح فرضي يوسف واشترط ان يقدموا له الزعماء القرشيين وهم طامر العبدري وابنه وهب والحباب الزهري ، وكان اكثر الثائرين من الجنية ولذلك لم يظهروا كبير معارضة في تسليم القرشيين وكانوا يعتقدون ان يوسف لا يشتد في الفسوة عليهم لما بينهم وبينه من أواصر القرى ووشائج النسب ، وعقد يوسف اجتماعاً للعداولة في امرهم فأبدى الصميل ضرورة قتلهم لشدة مقتنه لهم ولكن كبار قيس أشاروا عليه بالأل يفعل خشية ان يستثيروا عداوة قريش واحلافهم وكان اشدهم قولاً في ذلك سلمان بن شهاب والحصين بن الدجن فلما رأى يوسف اجتماع الرأي على الأ يقتلهم حبسهم وراجع الصميل مغلوباً على امره ولكنه أضمر اليد للزعيمين اللذين فيلاً رأيه وابطلا حجته وكان حانقاً عليهما من قبل لما بلغه من ترددهما في الاشتراك في الحملة التي قامت لانقاذه وهو محصور في سرقسطة ، وسنحت له فرصة للتخلص منها وذلك ان قبائل البشكنس اتفوضوا وخلعوا الطاعة فقطع يوسف لهم بمنأ وحرصه الصميل على ان يضع عليه ابن شهاب وجعل على خيله ومقدمته الحصين بن الدجن وبعثهم في ضعف ولم يكره عطبهم في تلك البلاد الملامى بالخيال الوعرة وساروا فلما امعنوا رجع يوسف قافلاً في قليل من الناس حتى بلغ وادي شرنبة فأدركه الرسول بهزيمة ابن شهاب وقتله وقتل طامة الناس معه وان فاهم مع الحصين بسرقسطة

عند أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف وكان يوسف خلفه على سر قسطة فسر ذلك الصميل
 في صباح اليوم التالي قال ليوسف « أما ابن شهاب فقد أراح الله منه فقدم هؤلاء
 واضرب أعناقهم » واستجاب له يوسف كما دته فاستدعاهم وأمر بهم فضربت أعناقهم
 ولما فرغ منهم وضع الطعام وجلس يأكل هو والصميل وكان يوسف كاسف البال
 لنفس النفس لان ضميره اخذ يؤذبه ويخزبه لقتل القرشيين وثقل على نفسه مصرع ابن
 شهاب وفناء الحملة التي غرر بها وارسلها الى الموت المحقق وكان يشعر انه قد أجرم جريمة
 فظيماً وأساء كل الاساءة فلم يستطع ان يقبل على الطعام ، وكان الصميل على نقيضه
 طرب النفس مستحق الوقار ، ولما رأى انكسار يوسف واطراقه قال له « لقد قتل
 ابن شهاب وقتلت طامراً والزهرى هي والله لك ولولدك الى الدجال ، من هذا ينازعك ؟ »
 ولكن هذا الكلام لم يهدى من نائرة يوسف ولم ينفع عنه الوسواس ثم خرج عنه
 ودخل رواق ابنتيه ليقبل واضطجع مفكراً فيما صنع ووضع رجله اليمنى على اليسرى
 وهو مستلق مفكر ولم يمر عليه دقائق معدودات حتى استرعى سمعه صياح اهل المعسكر
 « رسول من قرطبة » ففعد يوسف واستدعى وصيفاً له وسأله عن جلية الامر فقال
 له الوصيف « نعم والله فلان — وكان غلاماً له — على بغلة ام عثمان » — وهي ام
 ولد يوسف وصاحبة سلطانه — وكانت البرد قد قطعها الجوع وكاب الشتاء ، ولم يرع
 يوسف الا دخول الرسول عليه ومعه قطعة فيها ان ابن معاوية قد دخل ونزل بطرش
 عند عبيد الله بن عثمان واصفقت معه بنو امية وأن خليفتك على البيرة زحف اليه بن
 حنف من اهل الطاعة ليخرجه فهزم وضرب اصحابه ولم يقع قتل
 كان لهذا الخبر وقع شديد في نفس يوسف ضعفت عزيمته المتخاذلة فدعا الصميل
 فأنام مذعوراً من بعثته في وقت لم يكن يبعث فيه في مثله ، وكان قد بلغه قدوم الرسول

الأ انه لا يعلم ما جاء به فلما دخل على يوسف قال له « أصلح الله الأمير ما أقلقك في هذا الوقت الأ حدث ا فقال يوسف « نعم حدث والله جليل واني اخاف ان يكون الله قد ازل النعمة علينا بقتل هؤلاء فقال له الصميل وهو يحاول ان يوحى اليه الطائفة ويلهمه السكينة « ولا هذا كله فقد كانوا أهون على الله فما هو » فقال يوسف لكتابه « اقرأ عليه يا خالد كتاب ام عمان » فلما وقف الصميل على فحوى الكتاب لاحت في وجهه امارات الاهتمام وقطب حاجبيه وقال « خطب جليل والرأي ان نقطع اليه من فورنا هذا بمن معنا من الناس فاما قتلناه واما شردناه فهرب فان هرب لم يستقلها أبداً » وأقره يوسف على ذلك ولم يضبطوا سرهم فشاع الخبر في الناس وقد قتل من قتل منهم مع ابن شهاب وبقي فلهم في سرقسطة وتصاحبوا « غزوتان في غزوة » ولما امسوا لم يبق معهم من اليمين عشرة رجال وبقي قر من قيس خاصة من اجل الصميل وقليل من قبائل مضر وقد ملوا السفر واقبلوا على يوسف يهونون له الامر وبشرون عليه بالمضي الى قرطبة والصميل على رأيه الاول حتى وقع المطر وأقبل الشتاء وفاضت الأنهار بالمياه فترك المسير الى ابن معاوية ومضى الى قرطبة ، وجعل الصميل يحثه على اخاد الحركة في اول امرها فقال له يوسف « لقد انفضنا من المال وانضينا الظهر ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه ولكن نسير الى قرطبة فنستأق الاستعداد له بعد ان ننظر في امره ويتبين لنا خبره فلعله دون ما كتب لنا » وأدرك الصميل ان الأمر على خلاف ما يتصور يوسف وأغضبه مخالفة الامويين لنصيحته فقال ليوسف « الرأي ما أشرت به عليك وليس غيره وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه »

ولما استقر يوسف بقرطبة خشي عاقبة المطاولة وأثر فيه الحاح الصميل ولكن أحد مستشاريه قال له « ان الرجل لم يظهر طالب سلطانك وإنما جاء يطلب معاشاً

وأما فان عرضت عليه المصاهرة وان توسع عليه ألفيته مسرعاً الى طاعتك « واسترجع يوسف هذا الرأي فأوفد الى عبد الرحمن وقد آف فيه خالد بن يزيد كاتبه ومولاه وكان موضع ثقته وصاحب رأيه بعد الصميل وعبيد بن علي من كبار زعماء الفيسية وعيسى ابن عبد الرحمن وهو من موالي الامويين الذين كانوا في خدمة يوسف ، وبعث معهم بكساء فاخر وفرسين وبغلين وجاريتين والى دينار وكتب اليه كتاباً حملوه مع الهدايا ، وساروا حتى بلغوا ارش في أدنى كورة رية وهناك قال لهم عيسى بن عبد الرحمن « بأي رأي بعثت يوسف والصميل وأنتم ؟ رأيتم ان بلغنا بهذه الهدية فكره ما جئنا به أليس ان أخذته ما معنا بما يقوى به وبوهن صاحبنا ~~لأن~~ فأبصر القوم عوار رأيهم فقالوا له أقم بما معنا ونسير نحن فان أعطانا يعة ورضي بما جئنا به سرحنا اليك رسولنا لتقدم علينا بما معك وان يكون غير ذلك فارجمه الى الامير فهو أحق بماله » وسار خالد وعبيد حتى قدما على ابن معاوية بطرش عند ابي عثمان وعنده جماعة بني أمية ورجال من اليمن يختلفون اليه ويمتقبون المقام عنده. ولما سمح لها بالمشول بين يدي الامير اختطب عبيد وخالد كل واحد حذو صاحبه ودعواه الى الألفة ومصاهرة يوسف وقالوا ان يوسف لا يزال يذكر أيادي سلفه على جده عقبة بن نافع وأنه حريص على توثيق الألفة بينه وبين الامير على شريطة الأبطال بالولاية والسلطان وان يكتفي بما كان سابقاً من أملاك جده هشام وذكر ان يوسف قد أرسل معهما هدية قد تركها في ارش وانها آتية عما قريب وان يوسف مستعد للترحيب به والحفاوة بمقدمه في قرطبة

وراق هذا العرض الخلاب الشيعة الاموية وأعجبهم هذه الشروط وكانت حماسهم قد بدأت تفتت وأدركوا ان البنيين حريصون على الانتقام من خصومهم ومنافسيهم

ولكنهم غير شديدي التعلق بالغاية التي يسعى لها الامير فحشوا خذلانهم وكانوا يؤثرون
الاتفاق مع يوسف وانبرى أحدهم وقال لرسولي يوسف « ما أحسن ما عرضتها وما
جاء الأ طالباً لمورثته » ، وأخرج خالد كتاب يوسف وناولهُ لعبد الرحمن فدفعهُ
عبد الرحمن وقد لزم الصمت الى ابي عثمان وقال له « اقرأه وأجب فيه بما تعلم من
رأينا » وكان الكتاب من إنشاء خالد بن يزيد وفيه يقول عن لسان يوسف « أما بعد
فقد انتهى البنا زولك بساحل المنكب وتأبش من تأبش البك وزرع نحوك من السراق
وأهل الحتر والغدر ونقض الايمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا وبه جل
وعلا نستعين عليهم ، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمضوا
ذلك واستبدلوا بالامن خوفاً وجنحوا الى النقض والله من ورائهم محيط ، فان كنت
ريد المال وسعة الجنب فأنا أولى بك ممن لجأت اليه أكنفك وأصل رحمك وأترك
معي ان أردت او بحيث تريد ثم لك عهد الله وذمته بي ألا أعدرك ولا أتمكن منك
ابن عمي صاحب افريقية ولا غيره » ولما آتم أبو عثمان قراءته هم بكتابة الرد عليه فقد
التي عبد الرحمن على كاهله هذه المسؤولية وكان عبد الرحمن غير مستريح لما اظهره
الامويون من الرضى لانه لم يكن كل همه ان يصبح من اصحاب الضياع الواسعة
والثراء الجهم وإنما كان يسعى الى المجد ويريد الملك ولكنه لم يكن واثقاً من رسوخ
مكاته ولذا رأى من الحزم ان يترك الامر لاصحابه وشيعته واستسلم الى تضحية
آماله وتوديع أحلامه ولكن حدث ما لم يكن منتظراً وكأنما كانت الاقدار تزيل من
طريقه الآفات المعترضة

لم يكن خالد رسول يوسف ومنشئ كتابه عربي الاصل وإنما كان من اصل
اسباني وكان ابواه مسيحيين ، ثم ترك ابوه المسيحية وأسلم وتسمى زيداً ولذا اطلقهُ

سيده يوسف ونشأ خالد في خدمة يوسف وكان ذكياً وافر اللب حسن الاستعداد
 للكتابة والانشاء فنضلع من الادب وزوى من فنونه وحذق الكتابة وملك البيان
 فانخذه يوسف كاتباً له وكانت هذه منزلة كبيرة ومفخرة يزدهى بها لان الامراء
 كانوا يتنافسون في انتقاء الكتاب المبرزين المشهود لهم بالفحولة والافتداز واكتسب
 خالد بذلك نفوذاً واسعاً وصارت له على يوسف سيطرة ملحوظة وكان يتولى تدبير
 أمره وتسيير شؤونه في غيبة الصميل ، وكانت العرب تحسد خالداً لمكانته من يوسف
 وتقرفه بضعة الاصل ، وكان خالد متكبراً تياهاً ييادهم احتقاراً باحتقار ويكيل لهم
 الصاع صاعين ، ولم يكن ابو عثمان متمكناً في صناعة الانشاء وتحرير الرسائل وكان
 السيف في يده أجرى من القلم ، فلما رأى خالد ابطاءه وتعثره في الرد على كتابه
 وكان مزهواً بما يتضمنه من متخير الالفاظ وأنيق العبارات التفت اليه ساخراً مهاجفاً
 وقال له « لتعرقن إبطاك قبل ان تحير فيه جواباً » فاستشاط ابو عثمان غيظاً وكان
 بطبيعته غضوباً حاد الاخلاق ورفع يده وضرب بالكتاب وجه خالد وقال له « يا . . .
 لا تعرق لي فيه إبط ولا أحير فيه جواباً » وصاح برجاله « خذوه » فأخذوه وكبل
 من ساعته ، والتفت الى عبد الرحمن وقال له « هذا اول الفتح وهذا الرجل هو منبع
 الحكمة عند يوسف وبدونه لا يدبر شيئاً » وانتظر عبيد — الرسول الآخر —
 حتى هدأ غضب عبيد الله وقال له « يا أبا عثمان هذا رسول ولا سبيل اليه » فقال له
 عبيد الله « أنت الرسول فارحل في سلام وهذا متعد وقد بدأ بالشتيمة والاتفاص ابن
 الحبيثة العليج » ثم سرحوا عبيداً وحبسوا خالداً ، وهكذا قطعت المفاوضات من جراء
 غرور خالد واعتزازه بانشائه وسوء تصرفه وسر عبيد الرحمن بما حدث واتعمشت
 آماله ، ولما رحل عبيد الذي كان يحبه عبيد الله لانه زعيم قبيلة قوية والتي خالد في

السجن وذكروا الهدايا التي تحدث عنها الرسولان وعزموا على الاستيلاء عليها ما دامت الحرب قد اعلنت على يوسف فارسلوا ثلاثين فارساً لاغتصابها فوجدوا الخبر قد سبق الى عيسى فطار راجعاً بكل ما معه وطادوا فارغي الايدي

ولما روى عبيد ما حدث عند عودته ليوسف والصميل وما شاهده في طرش هاض ذلك يوسف وجعل الصميل يثرب عليه في خلاف رأيه اذ لم يمض اليه من حيث بلغه خبره . وهكذا استدار الحظ فأصبح الافاق الطريد الذي كان يهدده القتل في كل لحظة وبكل مكان محفوفاً بأنصار اشداء وشيعة مخلصه تحاول ان تضفي عليه برد الامارة وترفعه الى ذروة القوة والنفوذ .

تَرْفِيدُ الْمُقَارَضَةِ

معركة صحراء الصارة — الصلح مع
يوسف والصميل — هرب يوسف وعودته
إلى المقاومة — انهزام يوسف وقتله —
معصر الصميل

كان شتاء ذلك العام قاراً شديداً الصرد فاضطر الفريقان الى الترقب ريثما تذهب
صبارته ، وفي خلال تلك الفترة بث عبيد الله الدعوة لعبد الرحمن بين العرب والبربر
فأجابته اليمن بأسرها وجماعة من رؤساء القيسية لانحرافهم عن الصميل ويوسف منهم
جابر بن العلاء بن شهاب والحصين بن الدجن لما كان في نفسيهما مما صنع الصميل ويوسف
ابن شهاب وتطويحهما به في المهالك ، وثقيف لولائها القديم للامويين وأصفتت مضر
كلها مع يوسف وكانت قوة عبد الرحمن اكثر عدداً ولكن عبد الرحمن كان لا يستطيع
ان يعتمد الاعتماد كله على اليمنية لان قضيته لم تكن تعينهم وانما كانوا يرمون الى
الانتقام من المضربة قبل كل شيء ، أما انصار يوسف فكان يجمعهم غرض واحد وهو
الحرص على الحالة الراهنة ، وانقسم البربر قسمين قسم يناصر يوسف وقسم يماضد عبد الرحمن
وطويت سبرات الشتاء وتبلغ الربيع على البلاد فأصحت السماء وصفا الجو وذاع
في طرش ان يوسف يتأهب للحرب فأجمع القادة على ان يتجهوا نحو الغرب ليستقروا
القبائل اليمنية التي يمرون بها وليستولوا على مواقع صالحة لمهاجمة يوسف ، ولما ساروا
حتى أطراف شدونة تسرع اليهم حماة الجند ، ثم ساروا الى اشيلية وتلقى عبد الرحمن

بها رئيس عربها أبو الصباح بن يحيى البحصي واجتمع الرأي على أن يفصدوا بعبد الرحمن دار الامارة في قرطبة فلما نزلوا بقريه قلنيرة من اقليم طشانة قالوا « كيف نسير بأمر لا لواء له ولا علم نهدي اليه » فجاءوا بقناة وعمامة ليعقدوا عليها فكرهوا ان يملوا الفناء لتعقد تطيراً فأقاموها بين زيتونين متجاورتين فصعد رجل فرع احدهما ففقد اللواء والفناء قائمة

وبلغ يوسف خبر تحرك جموع عبد الرحمن فأقبل اليه من قرطبة وأخذ طريق الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير بينما كان عبد الرحمن يسير بجيشه في الضفة اليسرى ، وكانت المجامع قد تعاقبت قبل ذلك على الاندلس ست سنين فأورثت اهل الاندلس ضعفاً وهزلاً ، ولم يكن عيش عامة الناس بالمسكر ما عدا أهل الطاقة منذ خرجوا من اشبيلية الا الفول الاخضر الذي كانوا يجدونه في طريقهم ، وكان عبد الرحمن يريد أن يفجأ قرطبة وقد تركتها الجيوش لانه كان يعلم أن عامة أهلها من موالي الامويين ، وكان يوسف يرمي الى الاستيلاء على اشبيلية ، وسرطان ماتلاني الحيشان والنهر حاجز بينهما وكان زاخراً طامي العباب ، ووقف الجمعان يتراقبان ويتنظران هبوط مياه النهر ، وحاول عبد الرحمن ان يدير يوسف الى قرطبة فأوقد نيرانه ليلاً ليقع في روع يوسف انه يترجم الراحة والاقامة وأمر عبد الرحمن الناس بالحركة في جوف الليل ليسري ويصبح على باب قرطبة وقال لمن معه « ان كلفنا الرجالة ان يسيروا معنا انقطعوا ولم يلحقوا بنا ولكن بأخذ كل واحد منكم رديفه » ثم التفت الى غلام قد طر شاربه وقعت عينه عليه فقال له « من تكون يا فتى » فقال له سابق بن مالك ابن يزيد فقال عبد الرحمن — وجري في ذلك على مذهبه في التفاوض بالاسماء — « سابق سبقنا ومالك ملكنا ويزيد زدنا هات يدك انت رديفي »

وشعر يوسف بحركة عبد الرحمن تحت ستار الظلام فعاد أدراجه ليصد الهجوم
 على قبة ملكه ، وأصبح الجيشان كفرسي رهان ، ورأى عبد الرحمن ان خطته قد
 فشلت وإن يوسف بسبقه في هذا المضمار فحاول ان يخذله فأمسك عن المسير فتوقف
 يوسف وأخذ يرقب حركاته من الضفة الاخرى ، وطاود عبد الرحمن المسير فسار
 يوسف بسيره حتى حل صحراء الصارة غربي قرطبة ، ونال من جيش عبد الرحمن
 الكلال والجوع لقلّة الميرة ، وكان رجاله قد رجوا دخول قرطبة والتوسع في معاشها
 والانتصار بأهلها فكسرهم هذا الاخفاق وجملهم يتذمرون ونقص النهر يوم الخميس
 لتسع ليال مضين من ذي الحجة يوم عرفة ، ولما رأى ذلك عبد الرحمن اراد ان
 يستوثق من انصاره ويختبر رغبتهم فقال لهم « انا لم نحىء للمقام وقد دعانا هذا الرجل
 الى ما علمتم وعرض ما سمعتم ورأيتكم تبيع فان كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافأة
 فاعلموني وان كان فيكم جنوح الى السلم والصلح فاعلموني » فأصفت البينة بأسرها
 على الحرب ، وكان في موالي بني أمية بعض الحرص على الصلح ولكنهم لما رأوا تصميم
 البينة عدلوا عن ذلك وشابعوهم على رأيهم وقال عبد الرحمن لاصحابه اي يوم هذا «
 قالوا « الخميس يوم عرفة » فقال « فالاضحى غداً يوم الجمعة والمتزاحقان أموي وفهري
 والجندان قيس ويمن قد تقابل الاشكال جداً وارجو انه اخو يوم مرج راهط فابشروا
 وجدوا » فذكرهم يوم مرج راهط الذي كانت فيه الوقعة بين جده مروان بن الحكم
 وبين الضحاك بن قيس النهري وكانت يوم الجمعة ويوم اضحى فدارت الدائرة لمروان
 على الضحاك فقتل الضحاك وقتل معه عدد كبير من قبائل قيس واحلافهم
 واراد عبد الرحمن ان يعبر النهر ليلتقي مع يوسف في معركة ، ولما كان يخشى
 تعرض جيش يوسف لجنده وهم يحيزون النهر بدأ مع يوسف مفاوضات ليخذله وخذع

يوسف ورخص له في عبور النهر لتمّ المفاوضة وآمد جيشه بالموونة وكان عبد الرحمن
قد أعدّ للحرب عدتها واستكمل أهبتها وسهر الليل كله على نظام جيشه ولما أصبح يوم
الاضحى تراخى القوم والتفوا واقتلوا قتالاً شديداً ، فلما اشتدّ الامر نظرت البنية
الى عبد الرحمن على فرس وقد نزل حوله مواليه وحمل رايته عبيد الله فقال بعضهم
لبعض « هذا فتى حديث السن تحته جواد وما نأمن اول ردعة يردعها ان يطير
منهزماً على جواده ويدعنا » فأتى عبد الرحمن احد مواليه فأخبره بمقاتلهم فبادر
عبد الرحمن باستدعاء أبا الصباح فأقبل اليه فقال له « ليس في عسكرنا بغل أو فوق
من بغلك ، وان هذا الفرس يفلق تحتي فلا أقدر على ما أريد من الرمي من قومي
نخذ فرسي وهات بغلك واني أحب ان تكون تحتي دابة تُعرف ان حال الناس »
وكان بغلاً أشهب قد ابيض — فاستجبا ابو الصباح وقال « او يثبت الامير على
فرسه » فقال عبد الرحمن « لا والله » وركب البغل فاطمأنت البنية وتراموا عن خيلهم
وحملوا عليها اخفاءهم واشتدّ القتال واتصرت جيوش عبد الرحمن واخرقت فرسانه
الجناح الايمن لجيش عدوه وهزمت القلب وقتل عبدالله بن يوسف وجوشن بن الصبيل
وانهزم يوسف وصبر الصبيل بعده معذراً وعشيرته يحفونه فلما خاف انهزامهم عنه تحوّل
على بغله الاشهب معارضاً لعبد الرحمن فرمى به ابو عطاء فقال له « يا أبا جوشن
احسب نفسك فان الاشباه أشباهاً أموي بأموي وفهري بفهري وكلي بكلي ويوم
أضحى يوم أضحى ويمني بيمني والله اني لأحسب هذا اليوم بمنل مرج راهط
سواء » فقال له الصبيل « كبرت وكبر علمك الآن تنجلي الغماء وسحرك منتفخ »
فانثنى ابو عطاء لوجهه منقلباً وانهزم الصبيل وأخذ طريقه الى جيان وذهب رجلان
من طي الى داره بشقندة وانتهيا ما في الدار والصبيل مشرف على ذلك من سفح جبل

مطل وكان فيما وجداه له تابوت فيه عشرة آلاف دينار فلم يمنعه قتل ابنه وما نزل
به من الهزيمة من ان يفخر قائلاً

ألا ان مالي عند طي ودبعة ولا بدء يوماً ان ترد الودائع

سلوا بمنأ عن فعل رعي ومنصلي فان سكتوا أننت علي الوقائع

وهزم سائر الجيش وقتلوا قتلاً ذريعاً ، وسار عبد الرحمن حتى دخل قصر قرطبة
وأقبل عسكره فاتهب عسكر يوسف وأكلوا الطعام الذي كان قد أعده ، وانتهكت بعض
رجال البنية حرمة منزل يوسف وسلبوا ونهبوا فخرجت الى عبد الرحمن زوجة يوسف
وابنتاه وقلن له « يا ابن عمنا أحسن كما أحسن الله اليك » فقال « افعل » ودعا
صاحب الصلاة وكان مولى للفهري فأمره بضم النساء الى داره وردن لهم ما قدر على رده
وبات هو الليلة في القصر وأهدت اليه ابنة الفهري جارية تسمى حلال وهي أم ولده
وخليفته هشام وغضبت البنية لانه ردهم عن عائلته يوسف وكفهم عما يريدون من
فضيحتهم وقالوا « عصب » ، وقال بعضهم لبعض « ويحك قد فرغنا من أعدائنا من
مضر وهذا ومواليه منهم فلنقتل هذا الفتى المقدامة فيصير الامر لنا تقدم رجلاً منا
ونحل عنه المضرية وبصير لنا فتحان في يوم واحد » وجاء أحدهم فاتصيح ابن معاوية
وأعلمه بما تشاور فيه القوم من قتله وقتل مواليه وقال له احترس وضم اليك مواليك
وأعلمه ان أبا الصباح كان أشد الناس قولاً في ذلك ولما علمت البنية بذيوع سرهم
رجعوا عن نيتهم فأضمر عبد الرحمن الكيد لابن الصباح وأرجأ الانتقام منه الى الفرصة
المناسبة واحتاط لنفسه وسار الى الجامع وخطب خطبة الجمعة ووعد الناس باجراء
العدل واقامة القسطاس

وأصبح عبد الرحمن أمير قرطبة ، ولم يأس الصميل ويوسف من اعادة الكرة ،

وكانا قد اتفقا قبل ان يركنا الى الهرب على ان يذهب يوسف الى طليطلة فيحشد
من أهلها جيشاً ويذهب الصميل الى جيان ليستنهض المضربة ويستجيش الجموع
واجتمعت القوتان وتوافت اليهما جموع من سرقسطة واضطر الحاكم الذي اختاره
عبد الرحمن لحيان — وهو جابر بن العلاء بن شهاب — الى الانسحاب والاحتفاء
بمحض منتشية واعتصم حاكم البيرة بالحيل ، وبلغ عبد الرحمن نزول يوسف والصميل
بالبيرة فهم بالخروج اليهما ، ولما علم يوسف بذلك امر ابنه ابا زيد ان يسير الى قرطبة
من طريق مخالف للطريق الذي يسلكه عبد الرحمن وان يستولى على العاصمة وكانت
حاميها قليلة ، وسار عبد الرحمن يريد يوسف بالبيرة وخلف على قرطبة ابا عثمان في ناس
من بني قرطبة وبني أميتها وخالفه عبد الرحمن بن يوسف الى قرطبة فأغار عليها وحصر
ابا عثمان في صومعة المسجد الجامع التي في القصر واستنزه بعهد الأيقاتله وكنهه
وانطلق به الى ابيه في البيرة ، وكان يوسف يرمي بهذه الحطة الى ارغام عبد الرحمن
على الارتداد الى قرطبة ليجد براحاً لاستجاع قوته وتنظيم جيوشه وقد نجحت الحطة
وطاد عبد الرحمن لاسترداد قرطبة وكان عبد الرحمن بن يوسف قد تركها لما علم برجوعه
لمقاومته ، وسار عبد الرحمن بن معاوية بمد ذلك الى البيرة لا يرجع على شيء ، ولكن
حدث ما لم يكن منتظراً فقد شعر يوسف والصميل بضعفهما فمالا الى الصلح وراسلا
عبد الرحمن وعرضا عليه ان يسلم له الامر على ان يؤمن في اموالها ومنازلها وان يؤمن
الناس كلهم وتهدى امور الرعية فأجابهما عبد الرحمن واصطلحا وكتب بينهما كتاب
صلح وسرح بن معاوية خالد بن زيد وسرح يوسف ابا عثمان ، واشترط عبد الرحمن على
يوسف ان يرتنه ابنه عبد الرحمن ابا زيد ومحمداً ابا الاسود فقبضها على الأيحيبها
الأجسباً جيلاً معه في قصر قرطبة حتى تهدأ الامور وتعود الى نصابها فاذا صلحت

الاحوال واستقامت ردها وطاد عبد الرحمن الى قرطبة وقد ركب يوسف عن يمينه
 والصميل عن يساره وأحسن الصميل الصحبة وأجاد الادب فكان عبد الرحمن اذا ذكر
 الصميل يثنى عليه ويقول « لقد صحبني من البيرة الى قرطبة ما مست ركبته ركبتي ولا تقدم
 رأس بقله رأس بقلي ولا استفهمني في حديث ولا افتتح حديثاً بغير ان يسأل عنه ،
 ولم يقلد عبد الرحمن يوسف مثل هذا الثناء — ونزل عبد الرحمن قصر الامارة بقرطبة
 ونزل يوسف بمنزله بلاط الحر وكان قبله للحر بن عبد الرحمن الثقفي احد ولادة الاندلس
 السابقين ، وسارت الامور على ما برام واحسن عبد الرحمن معاملتها ورجا جماعة من
 أعداء يوسف ان يضيق لهم عليه عبد الرحمن فادعوا رابعه وامواله وسألوه ان يردوا ايام
 الى القاضي وهو يومئذ يزيد بن يحيى وكان اهل الدعوات قد رجوا ان يحيف لهم القاضي
 لما كان في نفسه على يوسف والصميل من فتاهما اليمن يوم شقندة فضم اليه يوسف
 والصميل وأهل الدعوات فلم يصنعوا شيئاً وعجزهم لها، واقام يوسف والصميل على احسن
 حال يختلفان الى عبد الرحمن ويحضرهما الرأي مرة بعد مرة ، وعمد عبد الرحمن الى
 استدعاء قومه فتايمت اليه ناس من بني أمية ومواليهم وكثروا وكان فيمن دخل في سنة
 ١٤٠هـ. عبد الملك بن عمر بن مروان ويقال له المرواني ودخل جزي بن عبد العزيز بن
 مروان ومعهما اولادها وبناتها ، ووجه عبد الرحمن الى الشام في طلب اخيه شقيقته
 وبعث مع الرسول مالا فلما قدم عليها قالت له « السفر لا تؤمن آفته وقد أمننا
 بحمد الله ووسعنا فضل القوم وحسبنا ان نكون في طافية » فالصرف عنهما ، وكانت
 بقرطبة بيوتات من بني هاشم وبني فهر وقبائل قريش وغيرهم قد نالوا مع يوسف
 رفعة ومنزلة فانقطع ذلك عنهم ، فكانوا يختلفون الى يوسف ويلقون اليه التحريف
 ويوغرون صدره ويندمونه على ما كان ولم يزالوا به حتى انقاد لهم واعتزم العودة

الى نوحيم السيف وكاتب بعض زعماء القبائل فقالوا له والله ما نرجع الى الحرب بعد السلم ، وكره الصميل وقيس ذلك وقالوا « حسبنا قد قضينا الدمام » فلما يقس منهم كاتب اهل ماردة ولقنت فأجابوه وكان له فيهما شعبة قد نفرت اليهما والى طليطلة يوم الصارة ، ولما صالح عبد الرحمن رد بعضهم وترك بعض بناته مع ازواجهن ومن استنقله من عياله معهن ، وأتته كتبهم يدعونه الى انفسهم فهرب سنة ١٤١ هـ . حتى نزل ماردة ، فلما علم ابن معاوية بهر به اتبعه الخيل فلم تدركه ، واستدعى عبد الرحمن الصميل ووبخه توبيخاً شديداً وأغلظ له القول وقال له « ابن توجه ؟ » فقال الصميل « لا اعلم » فقال له عبد الرحمن « ما كان ليخرج حتى يملكك وقد كان لنا عليك النصح ومع ذلك فان ولدك معه وأكد عليه في ان يحضره فقال له الصميل وقد تملكك الغضب « لو انه تحت قدمي هذه ما رفعتها لك فاصنع ماشئت » فأمر عبد الرحمن بحبسه فحبس مع ولدي يوسف ابي الاسود المعروف بعد بالاعمى وعبد الرحمن ، وحاول عبد الرحمن بن يوسف الهرب من السجن فأثقله اللحم فانهز فرد الى السجن وأتم الصميل من الهرب فأقام بمكانه ولما مضى يوسف الى ماردة حشد أهلها — عربها وبربرها — ثم أقبل الى لقنت فخف اليه أهلها وأقبل الى اشبيلية وكان واليها عبد الملك بن عمر المرواني واتفخ عسكر يوسف وصار في نحو عشرين الفاً او اكثر . فزحف الى المرواني بأشيلية وكان عبد الرحمن قد عسكر في قرطبة ينتظر الاجناد حتى توافوا اليه وتامت حشوده فتحرك بمن معه ، وأقبل يوسف اليه غير طابى ، بن خلفه ، وكان المرواني في اشبيلية منتظراً لولده عبد الله وكان والياً على مورور واعتقد عبد الله ان اياه محصور في اشبيلية فأسرع لنجدته وصمم الاثنان — الاب والابن — على مهاجمة يوسف ، وبلغ عبد الرحمن ما كان من مجرد يوسف للقائه فسار حتى بلغ حصن المدور ، وقيل ليوسف « هذا

المرواني قد نهد اليك وركب ساقنك « فصرف اليه جموعه واستعجل مكافئته خوفاً
 من ان يأتي عبد الرحمن من وجه والمرواني من وجه آخر، وتقايس المرواني رجاء ذلك
 فلم يمكنه يوسف من التقايس وأرغمه على الاشتباك معه في معركة والتقىا من ساعتها ،
 فحين التقيا نزل رجل من موالي فهر من البربر من ساكني ماردة نجد معروف بالشجاعة
 فدما الى النزال والبراز فلم يجرؤ احد على النزول اليه ، فكبر ذلك على المرواني فالتفت
 الى ابنه عبد الله وقال له « هذا اول الشر ونحن في قلة فازل على عون الله » فهض
 عبد الله الى النزال فأقبل اليه مولى له من موالي آل مروان بن الحكم حبشي يكنى
 بأبي البصري فقال له « اي شيء تريد يا مولاي ؟ » فقال له « اريد النزول الى هذا »
 فقال له « انا اكنفك ذلك يا مولاي » ، ونزل أبو البصري الى البربري وكانت السماء
 قد رشت بردا فالتقىا فتجاولا ساعة وكلاهما جسيم شجاع ففضى ان البربري زلفت
 رجلاه فسقط وتحامل عليه ابو البصري فقطع رجله بالسيف ثم كبر القوم وحملوا حمة
 رجل واحد فانهزم يوسف من ساعته وتفرق من معه وكان اصحاب المرواني أقل عدداً
 من ان يتبعوا المنهزمين فكان حمادهم ان اتهبوا عسكري يوسف وقتلوا من ادركوا، وبلغت
 اخبار الانتصار عبد الرحمن وهو نازل بحصن المدور ، ومضى يوسف الى فرّيش ثم
 الى خص البلوط ثم واقع محجة طليطلة يريد ابن عذرة ليأمن عنده فر بعبد الله بن عمر
 الانصاري وهو بقرية من قرى طليطلة فقبل له هذا يوسف منهزماً فقال لاصحابه
 « ويحكم اخرجوا بنا نقتله وزبح الدنيا منه وزبيحه من الدنيا وزبح الناس من شره فقد
 صار رجلاً ناجساً للحرب » وخرج حتى لحقه وليس يقفه وبين مدينة طليطلة الا
 اربعة اميال وليس معه الا سابق الفارسي احد موالي بني تميم ووصيف واحد وقد
 انضتهم شدة الركض وليس معهم منعة ولا مدفع فقتل عبدالله يوسف الفهري وقتل سابق

وهرب الغلام حتى دخل طليطلة وأقبل عبد الله بن عمر برأس يوسف، فلما بلغ عبد الرحمن
 أقبال عبد الله برأس يوسف امرء ان يتوقف به دون جسر قرطبة وأمر بقتل عبد الرحمن بن
 يوسف المكني بابي زيد ثم أخرج رأسه الى رأس ابيه ووضع على قناتين مشهرين الى
 باب القصر واستصغر ابا الاسود فحبسه، وأدخل على الصميل في الحبس بعد قتل
 عبد الرحمن بن يوسف من خنقه فأصبح ميتاً فدخل عليه مشيخة المضربة في السجن
 فوجدوه ميتاً وبين يديه كأس ونقل كأنه بغت على شرايه فقالوا « والله انا تعلم يا ابا
 جوشن انك ما شربتها ولكن سقيتها » وأخرج الى داره ودفنه اهله وانقضى امره
 وطويت اخباره

وقد عبد الرحمن ما كان من عبد الملك بن عمر المرواني وحسن بلائه في الذود عنه
 فأعلى مكانته وأغدق عليه العطايا وزوج ابنته من ابنه هشام ولي عهده ونظم عبد الملك
 في ذلك قصيدة طويلة في مدح عبد الرحمن منها : —

فيا زمناً أودى بأهلي ومعشري	لقد صرت في احشائنا لاذعاً حجراً
ويزداد دهر السوء غشاً وظلمة	كان على شمس الضحى دوتنا سراً
الى ان بدا من آل مروان مقمر	اضاء لنا من بعد ظلمته الدهراً
هجان أصيل الرأي ندب مهذب	أقام لنا ملكاً وشد لنا ازراً
وأثبت آمالاً وأثبت نعمة	وجئنا فألقينا الكرامة والبراً
أنال وأغنى منعماً متفضلاً	وأصق لنا مأمول ابناته صهراً
فنحن حوالية النجوم نجمت	الى البدر حتى صرن من حوله حجراً

[Faint, illegible handwriting, likely bleed-through from the reverse side of the page.]

إضطرابٌ واستقرار

ثورة هشام بن عذرة الفهري — ثورة
العلاء بن مغيث — ثورة سعيد بن يحيى
مقتل أبي الصباح — ثورة البربر

أصبح عبد الرحمن بعد تخضيد شوكة يوسف وهزيمته وقتله وبعد فتكهِ بالصميل أمير الاندلس غير منازع ، ولكنه لم يستمتع طويلاً بشجرة النصر ولذّة الغلبة لان تلك المسكنة السماء التي خاض اليها الدماء واعتلى الرقاب واصطنع الغدر وارتكب في سبيلها ضروب الفسوة لم تكن ثابتة الدائم راسخة البنيان ، وذلك لان الجنية كانوا هم القوة التي يستمد منها ويركن اليها ، ولكن عبد الرحمن كان يعلم علماً ليس بالظن ان ولاءهم له منهم وان مؤازرتهم غير طويلة العمر ولا مرجوة البقاء ، وقد حرصهم على نصرته حرصهم على الانتقام من المضربة ورغبتهم في النار لاقصمهم مما أصابهم في موقعة شقندة وتطلعهم الى استرداد هودهم واستعادة مكائهم ، ولولا ما كان بين زعمائهم من تنافس ومحاسد لارتضوا رئيساً منهم يفيثون اليه ويستظلون بزمامته ، وكان المنظور وقد ظفروا بغيبتهم وأدركوا نأرهم ان يقل اقبالهم على الامير وتبرّد حماسهم في تأييده وتقوية سلطانه ، ولم تكن سلطة عبد الرحمن قد استقبت ولم تكن مهابة قد استحكت في النفوس ووقرت في الصدور ، وكانت الفوضى لا تزال غامرة ولم يكن من السهل القضاء على بواعثها واجتثاث أصولها ولم تقل الهزيمة من عزيمّة الفهريين ولم يستكينوا

للغلبة ، فبعد سنتين من مصرع يوسف وثب هشام بن عذرة الفهري على طليطلة واستفاد من الفوضى الفاشية والتدمر السائد ونظم ثورة وناصره فريق من البربر لان الثورة كانت ديدنهم حيث تجدد غريزة النضال القوية في نفوسهم مجالاً للظهور وخرج اليه عبد الرحمن وحاصره ، فلما عضته الحرب ونال منه الحصار دعا الى الصلح وأعطى ولده رهينة ورجع عنه الامير ، فلما انصرف بمجموعه عاد هشام الى اشغال الثورة وخلع الطاعة وأعاد عبد الرحمن عليه السكره في السنة التالية وحاربه ودعاه الى الرجوع فصبر وثبت للحصار. ولما يئس منه عبد الرحمن أمر بابنه الرهينة فضربت عنقه ثم جعل الرأس في المنجنيق ورمى به اليه فسقط في المدينة ورجع عنه ذلك العام ، ولما حال الحول أرسل جيشاً لحصاره واتفق بعد ذلك ان ترامت الاخبار الى بلاط قرطبة مهددة منذرة بظهور ثورة خطيرة تهدد قواعد الملك وتكاد تميل برواسيه وذلك ان بني العباس بعد ان قوضوا ملك الامويين في المشرق واستأصلوا شأقتهم نظروا بعين الكراهة والبغض والحسد الى قوة عبد الرحمن النامية ودولته الناشئة وأخافهم ذلك على بعد المسافة وتناهي الاقطار ، ولم يكن المنصور خليفة العباسيين في ذلك الوقت الرجل الذي ينفل عن مثل هذا المناظر القوي والعدو اللدود ليئته ويتركه في هدوء ليؤسس دولة قوية ويجدد ما درس من آثار الامويين في المشرق ، لذلك حرص المنصور العلاء بن مغيث حاكم القيروان على محاولة الاستيلاء على الاندلس وابداء دولة عبد الرحمن ، وكان هناك مراسلات ومحالف بين العلاء والثأرين في طليطلة ، ولما جاء العلاء الى الاندلس ونزل بإباجة سنة ١٤٦ هـ. ونشر الراية السوداء هرعت اليه الجموع ، وتطلع أكثر أهل الاندلس الى خلع عبد الرحمن فانضوا تحت لوائه ، ولم يكن هناك أدعى الى ائتلاف الاحزاب المتدابرة واجتماع الشمل المبدد

وتوحيد الكلمة من رفع هذا العلم لأنه كان شارة الاسلام ورمز الخلافة ولم يكن مقصوداً
على حزب خاص او قبيلة معينة ، واستغلظ أمر العلاء ونحرج موقف عبد الرحمن
واضطر إلى الاستنجاد بالحيش الذي يحاصر طليطلة ، وأذاع العلاء في أطراف البلاد ان
عبد الرحمن ثار على الخلافة . فتصب للولاية وحاول هو وانصاره تشويه سمعته ورميه
بالمروق والكفر ليشير حماسة محاربيه ، وانصل نوار طليطلة بحاكم القيروان واحتلوا
مدناً كثيرة وحاصروا عبد الرحمن في قرمونة قريباً من شهرين ، وساءت حالة رجاله
لقلّة المؤونة واعتراهم الضعف وتفاصرت آمالهم ولما رأى ذلك عبد الرحمن صمم على
ان يخاطر بكل شيء ، وكانت حماسة عبد الرحمن مقترنة على الدوام بالروية الموفقة
والتفكير السديد. والملاحظة الدقيقة ، فلما وافته الاخبار بأن جيش العلاء قد ملّ الحصار
وتمشى السأم في قوس رجاله فأخذوا يتمحلون الاعذار للانصراف الى منازلهم اختار
سبعمائة رجل من صفوة حرسه ومغاوير ابطاله وأمر بنار فأوقدت عند باب قرمونة
المعروف باب اشيلية ثم امر بأجفان سيوفهم فطرحت في النار واخذ كل واحد منهم
نصل سيفه بيده وقال لهم عبد الرحمن « اخرجوا معي الى هذه الجموع خروج من
لا يحدث نفسه بالنكوص على الاعقاب فاما الموت او الانتصار » وكان هجومهم من
الاندفاع والقوة والمضاء بحيث زلزل جيش العلاء وحطم قواعده فولى رجاله منهزمين
وقد اختل نظامهم واحتلقت صفوفهم وفقدوا قاداتهم وما يقرب من سبعة آلاف رجل ،
وجيء بالعلاء واعلام رجاله فأمر عبد الرحمن بقطع يديه ورجليه ثم ضرب عنقه
وأعناقهم وأمر ففرطت الصكالك في آذانهم بأسمائهم وأودعت جوالقاً محصناً ومعها اللواء
الاسود وانفذ عبد الرحمن بالجوالق تاجراً من ثقانيه وأجزله العظية وأمره ان يضمه
بالليل في اسواق القيروان ، وقام التاجر بتلك المهمة ويروى أن المنصور لما بلغه خبر

ذلك قال « لقد عرضنا هذا البائن — يعني العلاء — للحنف ما في هذا الشيطان
مطمع فالحمد لله الذي صير هذا البحر بيننا وبينه » ووعى المنصور هذا الدرس القاسي
فلم يعد بعد ذلك الى تحدي سلطة عبد الرحمن

وبعد ان أحبط عبد الرحمن دسيسة العباسيين ورد كبادهم وانتصر عليهم انتصاراً
باهراً أرسل جيشاً يقوده مولاة بدر وتمام بن علقمة لحصار طليطلة ومل أهل المدينة
وتضعضعت قوتهم وكانهم مع ذلك تمام وبدر فأسلموا هشاماً وغيره من زعماء الثورة
فخرج بهم تمام يريد تبليغهم وأقام بدر في موضعه منتظراً لرأي الامير في المدينة ،
فلما صار تمام بأوربط لقي طاصم بن مسلم الثقفي فأمره بالرجوع الى طليطلة والياً عليها
وان يقفل بدرأً وقبض منه القوم ورجع تمام بما أعلمه به ابن مسلم من رأي الامير
وأقبل الثقفي بالقوم حتى حل بقريه حلوة فأمر الامير العبدي وكان صاحب الشرطة
فأخذ معه حجاماً وجباب صوف وسلالاً وحلقت رؤوسهم ولحاهم وألبسهم جباب الصوف
وأدخلهم في السلال ثم حملهم على الحمير وأدخلهم قرطبة على هذه الصورة المضحكة المزرية
ونجم اهالي المدينة للتلمي بهذا المنظر والاسهزاء بهم ثم أمر بهم فقتلوا وصلبوا

على ان هذا الافتنان في الانتقام وتلك الضربات الصاعقة والقسوة البالغة لم
تشذب أهواء القوم ولم تكبح جماحهم ونحن سعدتهم فقد حدث بعد ذلك بسنتين ان
سكر احد زعماء الجنية وهو سعيد اليحصي المعروف بالمطري فذكر عنده قتل الجنية
مع العلاء فاعتقد في ربحه لواء فلما أفاق من سكره ونظر الى العقدة قال ما هذا ؟
فقيل له اعتقدت البارحة هذا اللواء غضباً لقتل قومك فقال حلوا العقدة قبل ان يرفع
خبرها ، ثم كبر عليه ذلك فقال ما كنت لأرجع عن رأيي وكان شجاعاً نجداً فأرسل
الى قومه فاجتمعوا اليه وأقبل حتى دخل قلعة رعواق وأقبل الامير عبد الرحمن حتى

اذا انتهى اليه خبره نزل به فخرج المطري يقاتل حتى قتل وحارب اخوانه حرباً عنيفة
 عنيفة حتى اضطر عبد الرحمن الى ان يمنحهم الامان
 بعد ذلك جاء دور ابي الصباح وكان عبد الرحمن حاقداً عليه لانه في موقعة صحراء
 الصارة حرض البنية على قتله ، ولكن عبد الرحمن برغم عدم اطمئنانه اليه وارتابه
 في ولائه نحاشى الخلاف معه والابقاع به واختاره حاكماً لاشيبية مداراة له وتحيناً
 لاغتنام الفرصة فيه ، فلما هدأت الثورات بهض الشيء حاول عبد الرحمن ان يتناول
 مشككة ابي الصباح ليفرغ منها فبدأ بتعداه وعزله عن اشيبية فاستوقد ذلك غيظ ابي
 الصباح وأثار كمين ضغنه فأهاب رجال قبيلته وألبهم على عبد الرحمن ، وأدرك عبد الرحمن
 سعة نفوذ هذا الزعيم وسمو مكاتبه عند قومه فعمد الى الخديعة وأعمل الحيلة في استقدامه
 وأرسل اليه عبد الله بن خالد بالامان فقدم به وكان معه اربعمائة فارس من جنده فعاتبه
 فأغلظ للامير وتهدده فغافله الامير ودعا جارية سوداء كانت قبسنة وكانت تصلح له من
 حال الجواري وتولى حملهن على اديه واستحسانه فأتته بخنجر وقد هم ابي الصباح بأن
 يبسط يده ويمتدي على عبد الرحمن فأمر الفتيان به ثم طعنه في اوداجه بالخنجر حتى أوهدنه
 ثم قتله الفتيان وأمر الامير بلفه في مسح شعر وتحنيتة وتغيير اثر دمه ثم ادخل ووزراه
 فاستشارهم في قتله ولم يظلمهم الاً انه محبوبوس فلم يشر عليه منهم احد بقتله وقالوا له
 « على الباب اربعمائة فارس وجند الامير غائب ولا نأمن ان يحدث من ذلك بلاء » الاً
 ان المرؤاني خالفهم فيما ذهبوا اليه وأشار عليه بقتله وقال في ذلك اياتاً من الشعر منها:
 يا ابن الخلائف اني ناصح لك
 في قتل ذي لحن يرناد للنقم
 لا يفلتك فإتينا بياثقة
 واشدد يدك به تبراً من السقم
 جلله عضباً من الهندي ذا شطب
 ان الصرامة فيه فعلة الكرم

فقال لهم قد قتلته ، ثم أمر برأسه فأخرج وصاح صائح على اصحابه ان ابا الصباح قد قتل فمن اراد ان يلحق ببلده فليلحق آمناً فافترقوا ولم يكن حدث ، وساعت هذه الفعلة ابا خالد فاعتزل خدمة عبد الرحمن ولزم منزله حتى مات

وبعد مقتل ابي الصباح بمدة يسيرة قامت ثورة البربر ، وكانوا قد التزموا الهدوء وأمسكوا عن الثورات حتى نبع بينهم معلم صبيان اسمه شاقبة — وفي بعض المراجع اسمه سفين بن عبد الواحد — وهو من قبيلة مكناسة وكان مقبلاً في شرق الاندلس وكان هذا الرجل مزيجاً من التعصب والدجل فقد كان طاكفاً على قراءة القرآن متبحراً في دراسة الاحاديث واستظهارها منهمكاً في الاطلاع على الشريعة الاسلامية وتاريخ الاسلام واجتمع له الى ذلك طموح ورغبة في ان يلعب دوراً فادعى انه من ولد علي وفاطمة ومهدله هذا الدماء ان أمه كانت تسمى فاطمة وقد اسبغ عليه ذلك مظهر العلماء العارفين ، وكان البربر ينقادون لاي انسان بظن ان له مواهب خارقة وقدرة فوق المألوف واتصلاً بما وراء الطبيعة ، وكان يزيدهم اقبالاً عليه رغبتهم في السلب وميلهم الى الفوضى والحرب ، فلما اعلن دعوته تكاثرت جموعه وعظمت شوكته وسار الى الاقليم الواقع بين نهري التاج ووادي انه واستطاع ان يستولى على مدينة شنبرية وماردة وقورية وافسد يميناً وشمالاً وهزم الجيش الذي جاء لمحاربتة من طليطلة ، ولما ارسل اليه عبد الرحمن قوة يقودها عبيد الله استمال البربر من رجالها وهزم سائر الجيش واستولى على المعسكر وانسحب الى المفاوز ليتحاشى الاشتباك في معركة مع جيوش عبد الرحمن ، وبعد انقضاء ست سنوات في حروب منقطعة وحملات فاشلة استطاع عبد الرحمن ان يوقع الشقاق في صفوف البربر وان يستميل الى جانبه احد زعماء البربر الاقوياء المنافسين لشاقبة ، واضطر ذلك شاقبة الى ان يترك شنبرية

وينسحب الى الشمال ، وبينما كان عبد الرحمن يسير اليه وقد دوخ البلاد الموالية له
وأزل بكل من شابهه او دخل في شيء من امره التكال فهو يخرّب ويحرق وينسف
في قرى البربر التي في طريقه قدم عليه كتاب من قرطبة من عند مولاه بدر يذكر ان
حيوة بن ملامس تار في اشيلية ونهض معه اليمنية طلباً لتأري أبي الصباح وقد اتاح لهم
هذه الفرصة التي كانوا ينتظرونها غيبة عبد الرحمن في الشمال وهو يطارد الدعي البربري ،
وحاول اليمنيون الاستيلاء على قرطبة وانضم اليهم بربر الغرب ، ففقل عبد الرحمن من
فورهم الى قرطبة واني ان يستريح في قصره وبادر اليهم وكان القوم قد اقبلوا حتى نزلوا
بنيسر وخذقوا على انفسهم فخارهم اياماً وبعد مناوشات غير مجدية دعا جماعة من البربر
الموالين له وقال لهم « خاطبوا بني عمكم وعظوم واعلموهم انه ان تغلب العرب وقطعوا
دولتنا فلا بقاء لهم معهم » فلما اظلم الليل دنوا من العسكر وخاطبوهم فأجابوهم الى ما احبوه
ووعدوهم بالانحراف عنهم عند ابتداء المعركة ، وقالوا لهم « اتا سنهزم فليبق الامير علينا »
فلما كان من الغد استحرت الحرب وقالوا للعرب « انا لانحسن الحرب الاً فرساناً فأحملوا
من بقي منا على الخيل » فأرجلوا العرب وحملوا البربر على خيلهم ودخلوا رجالة وفر البربر
على خيلهم الى صفوف عبد الرحمن وانهزمت رجالهم فجزوا الهزيمة على سائر الجيش
واعمل رجال عبد الرحمن سيوفهم في المنهزمين وقتلوهم قتلاً ذريعاً ولم يبقوا على احد لا بربري
ولا عربي رغم الامر الذي اصدره عبد الرحمن بترك الفارين من البربر وقتل في هذه
المعركة حيوة بن ملامس زعيم هذه الثورة وكان قبل ذلك من اصدقاء عبد الرحمن المقريين
قام بعد ذلك عبد الرحمن على رأس حملة في اثر الدعي الفاطمي فهرب الفاطمي حتى
أمن في المفاوز ولم يخذ ثورته إلاً بعد سنوات حيث قتله اثنتان من انصارهم وقبل
خمودها ظهر في الميدان عدو جديد شديد الخطر مرهوب الصولة وهو شارلمان العظيم

سارلمان في الميدان

— خصوم عبد الرحمن بأنتمرون به —
— تحرير شارلمان على غزو الاندلس —
— قدوم شارلمان — اضطراره الى العودة —
— اخراج ثورة سرقسطة

كان عبد الرحمن صادق النهوض بأعباء الامارة حسن القيام بشؤونها لا ينفك يعمل
خاطره ويتعب رويته في نشر الامن وتثبيت النظام ، وأرصد لاعدائه والمارقين من
طاعته شدة بالغة وقسوة منكرة ، ولكن رؤساء قبائل الاندلس من عربها وبربرها
كانوا قوماً لا يسبقون الخضوع ولا يطبقون النظام ولا يصبرون لسلطان القاهر والملك
العنيد وكانوا يؤثرون تقسيم الجزيرة الى امارات صغيرة تكون حرة في محاربة بعضها
بعضاً ليظل كل منهم محتفظاً باستقلاله معتزلاً بقيلته ، ورغم ما بذله عبد الرحمن من
جهد وما أظهره من ضراوة كانت تتوالى الاحداث وتصدع الفتوق وتقوم الثورات
وتدبر الدسائس لتوهين ملكه وخلع طاعته واقامة العقبان في طريقه

X ومن المؤامرات الخطرة التي دبرت ضده المؤامرة التي اشترك فيها ثلاثة من اعدائه
وهم عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقالي وكان متزوجاً من احدى بنات
يوسف وكان يقال له الصقالي لطول قامته وزرقة عينيه وشعره الاصهب ، وسليمان
ابن يقظان الاعرابي السكبي حاكم برشلونة وابو الاسود بن يوسف ، وكان في حبس
عبد الرحمن ولكنه ادهى العمى وأجاد تمثيل دوره واحتل شدة الاختبار حتى نجح

في حمل الجميع على الاعتقاد بماه واستطاع بذلك ان يضل حراسه ويفرهم بالتراخي في مراقبته ودبر بعد ذلك وسيلة للهرب مع مولى من موابه كان يتردد عليه من حين الى حين ، ففي ذات صباح وقد سبق المسجونون من ممر تحت الارض لكي يفتسلوا في النهر ، انتظر مولاة مع بعض اصحابه في الضفة اليسرى وغافل هو الحراس وغاص في النهر وعبره ساجحاً وامتطى صهوة جواد اعد له وفر الى طليطلة آمناً

وكانت عداوة هؤلاء الثلاثة لعبد الرحمن من القوة والتأصل بحيث أنسهم جميع الاعتبار وأذهلتهم عن كل الفروض والواجبات وأوحت اليهم الانتجاء الى شارلمان وكان يعد في عصره حامي حمى النصرانية وأقوى خصوم الاسلام فقصدها الى بلاطه في بادربورن سنة ٧٧٧ ميلادية وعقدوا معه محالفة ضد عبد الرحمن ، وكان شارلمان في ذلك يجري على سنن السياسة التقليدية التي اتبعها أمراء الفرنجة وكانت تشجيع كل عصيان يرمي الى الاستقلال عن حكومة قرطبة واضعاف شوكتها ، وكان شارلمان في ذلك الوقت يظن انه قد فرغ من أمر السكسون وأخضعهم وحملهم على الدخول في المسيحية ، وكان قد أبعث زعيمهم ويتكند وتقرر ان يعبر شارلمان جبال البرانس ومعه جيش ضخم وان يوافيه الاعرابي وحلفاؤه في شمال نهر ابرة حيث يعترفون بسلطانه ويشدون لآزره ، وان يجمع الصقالبي جيشاً من البربر الافريقيين ويقودهم الى ولاية تدمير ويتعاون مع الغزاة في الشمال بأن يرفع علم الخليفة العباسي حليف شارلمان ، وكانت هذه الخطة المحكمة التدمير تنذر بأنها ستكون أشد ضربة وجهت لعبد الرحمن . ولكن لحسن حظه لم تنفذ الخطة بالاحكام الذي دبرت به ، ففي سنة ٨١٦ هـ . عبر عبد الرحمن الصقالبي من افريقية الى الاندلس مظهراً الدعوة للعباسيين ونزل بتدمير واجتمع اليه البربر ولكنه وصل مبكراً اذ لم يكن شارلمان قد عبر البرانس وكتب

الصقالي الى سليمان بن يقظان بدعوه الى أمره وبطلب اليه مناصرته فأجابه ابن
الاعرابي بأن الخطة المنفق عليها تقضي ببقائه في الشمال حتى يجيء جيش شارلمان وكانت
العداوة الاصلية بين الفهرين والبنيين من القوة بحيث تسمح بتكاثر الظنون وراكب
الشبهات واعتقد ابن حبيب ان الاعرابي قد ختر عهده ففراه بمجموعه فهزمه الاعرابي
فكر الفهري الى تدمير فزع اليه رجل من اهل أوربط وصار من اصحابه وظهرت
له منه نصيحة حتى صار من ثقائه واطمان اليه فاغتاله وأخذ خيله ونزع الى الامير
عبد الرحمن وكان هذا الرجل من صنائعه

وفي بواكير الربيع سنة ٧٧٧م. تقدم شارلمان في جيوشه الحرارة وجوعه الزاخرة
الى جبال البرانس واضطر بسبب ضخامتها ان يشطرها شطرين لعبور ممرات البرانس
على ان يلتئم الشطران عند ابواب سرقسطة ، ولما هبط أسبانيا كان أحد زعماء العرب
الثلاثة قد فارق الحياة ، ولم يستطع ابو الاسود ان يقوم بعمل ذي بال لان طول
اقامته في السجن أخلت بنشاطه وقصرت سعيه وجعلته غير صالح لمواجهة هذا الموقف
الخطير ، ولم يبق لشارلمان سند سوى ابن الاعرابي وحلفائه في الاقاليم الشمالية مثل
ابن ثور حاكم وشقة ومثل الكونت جالندو المسيحي حاكم شرطانيس

ولم يكن ابن الاعرابي ساكن الحركة في تلك الفترة فقد تار معه الحسين بن يحيى
الانصاري وهو من ولد سعد بن عبادة الزعيم الانصاري المشهور واستولى على
سرقسطة ، ولكن لما زحف شارلمان الى أسوار المدينة لم يستطع الزعيم ان يتغلبا
على كراهة المسلمين لدخول ملك الفرنك الى مدينتهم واشتمزازهم من تلك الخيانة
المنافية لمبادئ الاسلام وقواعد الشرف ، وكان من الصعب ان يسبق ذلك الحسين
الانصاري في بسر وسهولة لان فيه نبذاً لذكريات أسرته المجيدة وماضيها الحافل في

نصرة الاسلام وكان الحسين كسائر ابناء ذوي السابقة والبلاء في ندعيم الاسلام يعز
بلك الذكريات الغالية ويزهى بها ويستمد منها الثقة بالنفس والحرص على الكرامة
والترفع عن الدنيا ، وكان ما بين الزعيمين من تنافس يضعف الثقة بينهما ويجعل
تعاونهما قليل الثمرة قصير المدى ، ولما رأى ابن الاعرابي ذلك خشي ان يداخل
شارلمان الشك في أمره فاستسلم لشارلمان ووضع نفسه رهن اشارته ، وبينما كان
شارلمان يتأهب لمحصرة سرقسطة وارغامها على الخضوع ترامت اليه الانباء بأن الزعيم
السكسوني ويتكند انتهز فرصة غياب جيش الفرانك في اسبانيا وطاد الى سكسونيا
وازكى حمية السكسون فعادوا الى الثورة واكتسحوا البلاد ووضعوا السيف والنار
وتوغلوا حتى حدود الراين واستولوا على مدينة ديزر المقابلة لمدينة قولون

ولم يجد شارلمان ازاء تلك الاخبار المفلقة بدءاً من ان يقوض خيامه لساعته
ويبتدر العودة من شواطئ الابرّة الى شواطئ الراين ، ومرّ جيشه من ممرات
رونشرفال ، وعلت بذلك قبائل البشكنس وكانت تكره قبائل الفرانك كراهة
شديدة فاختبأوا في الاحراج والمنعطفات المشرفة على آخر الوادي في اقصى نواحيه
الشمالية ، واضطر جيش الفرانك بسبب ضيق الوادي ان يمر في صف مستطيل مترامي
الامتداد ، فترك البشكنس اكثر الجيش يمر دون ان يتعرضوا له ، ولما جاءت
المؤخرة الى الوادي ومعها الاحمال اتقضوا عليها وأقنوها بأسرها وحملوا الغنائم
والاسلاب واغتموا فرصة اقبال المساء وتفرقوا تحت ستار الظلام في كل ناحية من
نواحي الوادي الجبلية وكان فيمن قتل رولاند البطل المعروف والشاعر الذائع الصيت
وصديق شارلمان الحميم فرثاه شارلمان أحر رثاء وبكاء امر بكاء
وهكذا انتهت هذه الحملة التي بدأت قوية محكمة حافلة بالاختطار التي كانت كافية

لهم بناء عبد الرحمن ومحو سلطانه ، وقد ظل عبد الرحمن خلال ذلك ملتزماً الهدوء
 يشاهد من بعيد تمثيل هذه المأساة ، فلما تمت فصولها وانفض لاجبها اوفض عبد الرحمن
 ليجني ثمرها وحاصر سرقسطة ، وقبل ان يلغها كان الاعرابي الذي صحب شارلمان
 اثناء عودته وعاد بعدها الى سرقسطة قد مات ، وذلك لان الحسين بن يحيى اهمه
 بالخيانة وعدا عليه في المسجد يوم جمعة وقتله وصار الامر للحسين وحده ، فلما حاصر
 عبد الرحمن المدينة سلم له ، ولكنه عاد الى الثورة بعد قليل فلما حاصر عبد الرحمن
 المدينة ونصب عليها المنجنيق من كل جانب وضيق على اهله اشد الضيق رأى
 اليه القوم واسلموا اليه الحسين الانصاري وزعماء الثورة فشدخ رؤوسهم بالعمد
 وأقبل خواصه يهتفون هجراً بينهم احد من لا يؤبه به من الجند فهتأ بصوت عال
 فغضب عبد الرحمن وقال له في حدة « والله لولا ان هذا اليوم يوم اسبغ علي فيه النعمة
 من هو فوقني فأوجب علي ذلك ان انعم فيه علي من هو دوني لاصليتك ما تعرضت
 له من سوء النكال ، من تكون حتى تقبل مهنتاً رافعاً صوتك غير مثل جليج ولا منهيب
 لمكان الامارة ولا عارف بقيمتها حتى كأنك تخاطب اباك او اخاك ، وان جهلك
 ليحملك على العود لمنلها فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة » فأجابته الرجل
 « لعل فتوحات الامير يفتن اتصاها باتصال جهلي وذنوبي فتشفع لي متى أتيت بمنل
 هذه الزلة لا أعدهني الله تعالى » فهلل وجه عبد الرحمن وقال « ليس هذا
 باعتذار جاهل » واسترسل يقول « نهبونا على أنفسكم اذا لم تجدوا من ينفينا عليها »
 ورفع مرتبته وزاد في عطائه . وبعد خضوع مدينة سرقسطة هاجم عبد الرحمن قبائل
 البشكنس وأخضع أمير شرطانيس ، وكان آخر من قام بثورة هو ابو الأسود
 واكن عبد الرحمن انتصر عليه في معركة حامية حيث خانته قائد ميمته

وهكذا طاد عبد الرحمن منصور اللواء من كل حروبه وقمع الثورات وأطفأ جمره
العصاة وأرغمهم على الاذعان لطاعته وخاق من الفوضى نظاماً ودولة محبوبكة الاطراف
مناسكة البنيان كما يتفت الشاعر الكبير روحه في طائفة بمثرة من القصص والاساطير
فيخرج منها آية من آيات الفن الرفيع.

Faint, illegible text at the top of the page, possibly bleed-through from the reverse side.

Second section of faint, illegible text.

Third section of faint, illegible text.

Fourth section of faint, illegible text.

Fifth section of faint, illegible text.

الأيام الأضيرة

سياسة عبد الرحمن — الخلاف بينه وبين
بدر — مقتل المغيرة بن أبيه —
وفاة عبد الرحمن

نجح عبد الرحمن في سياسته وصحبه التوفيق في عمله ولاكنه دفع ثمناً غالياً
لنجاحه فقد اقتضاه الحرص على النجاح وقهر الحصوم والاعداء ان لا يتعطف عن
القدر والحيانة ولا يتورع عن الدسيسة ولا يحجم عن الشدة المتناهية ، وقد جاء الى
الاندلس طريداً قد شرده الخوف وأتعبته المطاردة فلم يجد أمة موحدة القصد
متحدة التقاليد متفاربة الاخلاق بل وجد على نقبض ذلك اخلاطاً من الامم وانماطاً
متباينة من الناس فقد كانت اسبانيا عند دخوله خليطاً غريباً من بقايا الرومان
والاسبانيين القدماء والقوط والتورمنديين والعرب والبربر لا جامعة قومية تربطهم ولا
مصلحة مشتركة تعين على ادماجهم ولا عقلية متشابهة تسيطر عليهم وتسيرهم ، فكان
جل ما يرمى اليه ويعمل على تحقيقه هو ان يخلق منهم أمة واحدة ، وقد أفنى زهرة
شبابه وأفنى أيامه في هذه المحاولة الصعبة وكلفه ذلك مجهوداً جباراً ودماً غزيرة
واسرافاً في الشدة فشوه ذلك من سمته وألقى حول شخصيته ظلاً قائماً وأظهره في
مظهر الطاغية الجبار الذي لفظ الرحمة ونبت القانون والعدل ، ولما استوحش من العرب
واستراب في اخلاصهم له وعلم انهم له على دغل وحقد دفين انحرف عنهم الى اتخاذ

المالِك وأكثُر من ابتِباع المِوالي واعتَضد أيضاً بالبربر ووجهَ عنهم إلى بر العِدوة وأحسنَ لمن وفَد عليه منهم أحساناً رَغِبهم في المِتابعة واستكثُر منهم ومن العبيد واتَّخَذ أربعين ألف رجل صارَ بهم غالباً على الأندلس مطاع الكلمة قوي النفوذ وعجَز بذلك عبد الرحمن عن الظفر بحبِّ شعبه واستخلاص مودتِه وكرهه القوم من أعماق نفوسهم وتمنوا زوال ملكه وأمسك أهل الشرف والصدق عن الاشتراك في العمل معه فلما مات القاضي يحيى بن يزيد بقرطبة شاور عبد الرحمن أصحابه في من يوليه القضاء مكانه ، وحضر شوراء أبناء سليمان وهشام ، وقال له هشام وسليمان « عرفنا بجانب المدور الأدنى إلى قرطبة شيخاً من العرب الشاميين له فضل وصلاح وخير كثير يسمى مصعب بن عمران الصمداني » فصدقها الوزراء ، فبعث عبد الرحمن في الشيخ فلما أوصله عبد الرحمن إلى نفسه أعلمه بما بعث فيه فرفض الرجل أن يلي القضاء في عهد أمير يضع سلطته فوق القانون ولما ألح عليه عبد الرحمن ظل مستمسكاً برأيه ، وكان عبد الرحمن لا يحتمل أن يخالف فغضب غضباً شديداً حتى جعل يقتل ما أسبل من شاربه وكانت اماره غضبه وسلطوته وغالب غضبه في صعوبة والتفت إلى مصعب وقال له « قم فعلى المشيرين بك لعنة الله وغضبه »

وتغيرت عليه قلوب انصاره والفاطميين بدعوتِه الذين استعان بهم في الشدائد فهجروه وانقطعت بينه وبينهم الأسباب ، فابن خالد نقيه القديم ابني ان يسير معه في مسالك الحياينة وطرائق العدر فهجر خدمته بد فتكك بأبي الصباح ، ولما رأى ابو عثمان استغناء عبد الرحمن عنه وعن امثاله بعد استقرار دولته أراد ان يشغل خاطره ويظهر له حاجته إليه فأغرى وجيهاً ابن اخته بنيد طاعة عبد الرحمن والانضمام إلى الدعي البربري ولما قتل الدعي البربري غيلة ووقع وجيه في قبضة يده ضرب عنقه ولم يعبأ بشفاعته

عبيد الله ، واتهم بعد ذلك عبيد الله في مؤامرة مع ابن أخي عبد الرحمن وقيل له ان
أبا عثمان هو الذي ضمن له تمام الامر ونجاح المؤامرة ولكن عبد الرحمن رغم طغيانه
لم يجد الادلة كافية للحكم عليه بالقتل فقال للذين اتهموه « هو ابو سلمة هذه الدولة
فلا يتحدث الناس عنه بما تحدثوا عن بني العباس في شأن أبي سلمة ولكن سأعته عتياً
أشد من القتل » وجعل يوعده ورجع له الى ما كان عليه في الظاهر

وبدر خادمه الامين لم ينبج من غضبه ولم يسلم من شدته وانتقامه، ويرجع الجفاء
الذي نشأ بينهما الى اختلاف في طبيعة الرجلين ، فقد كان عبد الرحمن رجلاً مطبوعاً
على الكفاح لا يقر له فرار ولا تهمد له حركة وكان في دمه هب لا تخبو ناره وفي
روحه عاصفة لا يهدأ هبوبها فلم يستطع بدر المسكين ان يظل متابعاً خطواته الخيثة
متوقلاً معه في معارج البعيدة المطالع وكان خليقاً بعبد الرحمن ابن يرحم مولاه
الامين الذي كان يحلم بالراحة بعد العناء الطويل والجهاد الشاق ، ولكن الرجل الذي
أنفق حياته في القضاء على الفوضى وحسم عنها لا يستطيع في اواخر أيامه ان يفضي عن
أقرب الناس اليه واحظاهم عنده اذا قاوم إرادته واعترض سعيه ، وأول ما بدأ به بدر
تدمره قوله « لقد بعنا أنفسنا وخاطرنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصى أمه »
وأمره مرة بالخروج الى غزاة فقال « انما تعبنا أولاً لنستريح آخراً وما أرانا الا في
أشد مما كنا » وأطال من امثال هذه الاقوال التي كانت تبلغ عبد الرحمن وتنفضه
فهجره وأعرض عنه فزاد كلامه وكثرت شكواه وكتب اليه رقعة يقول فيها « أما
كان جزائي في قطع البحر وجوب الفقر والاقدام على تشببت نظام مملكة وإقامة
أخرى غير المهجر الذي أهانني في عيون اكفائي وأشمت بي اعدائي وأضعف أمري
ونهي عندي من يلوذي وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفدني على الطمع والرجاء

وأظن اعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا فأنا لله
 وأنا إليه راجعون» فلما وقف عبد الرحمن على رقعة اشتد غيظه عليه فوقع عليها «وقفت
 على رقعتك المنبثة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة أدبك ولئيم معتقدك والعجب انك
 متى ما اردت ان تبني لنفسك عندنا متاناً آتيت بما يهدم كل منات مشيد مما تمن به وما
 أضجر الاسماع تكراره وقدحت في النفوس اعادته وقد استخرنا الله تعالى من أجله على
 امرنا باستئصال مالك وزدنا في هجرتك وابعادك وهضنا جناح ادلاك فلعل ذلك يقع
 منك ويردك حتى نبلغ منك ما نريد ان شاء الله تعالى فنحن اولى بتأديك من كل
 احد اذ شرك مكتوب في مثالنا وخيرك معدود في مناقبنا» فلما ورد هذا الجواب على
 بدر استسلم للقضاء وعلم أن لا مرداً لامر عبد الرحمن ولا معقب لكلمته، ووجه
 عبد الرحمن من استأصل ماله والزمه داره وهتك حرمة، ومع هذا لم ينته بدر عن
 الاكثار من مخاطبته ليستلينه ويستجلب عفوهُ الى ان كتب اليه «قد طال هجري
 وتضاعف همي وفكري واشد ما علي كوني سلباً من مالي فسي ان تأمر لي باطلاق
 مالي واتخذ به في معزل لا اشتغل بسلطان ولا ادخل في شيء من اموره ما عشت»
 فوقع له عبد الرحمن «ان لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك لكان بعض
 ما استوجبتهُ ولا سبيل الى رد مالك فان تركك بمعزل في بلهنية الرفاهية وسعة ذات اليد
 والتخلي من شغل السلطان اشبه بالنعمة منه بالنعمة فايأس من ذلك فان اليأس مريح»
 فسكت بدر لما وقف على هذه الاجابة مدة الى ان أتى عيد فاشتد به حزنه لما رأى من
 حاجة من يلوذ به وهمهم بما يفرح به الناس فكتب اليه في ذلك رقعة منها «وقد أتى
 هذا العيد الذي حالفت فيه أكثر من اساء اليك وسعى في خراب دولتك بمن عفوت
 عنه فبتك النعمة في ذراك واقعد ذروة العز وانا على ضد من هذا سلباً من النعمة

ورصد عورة
 خطايات عادي
 خطاً النقص
 ارسل عمير
 الرحمن به
 عنيفاً اني
 القصي
 الشفر

مطرحاً في حضيض الهوان أياً مما يكون وأفرع السن على ما كان « فلما وقف
عبد الرحمن على هذه الرقعة امر بنفيه عن قرطبة الى اقصى الثغر وكتب له على ظهر
رقعته « لتعلم انك لم تزل بمقتك حتى ثققت على العين طلعنتك ثم زدت الى ان ثقل على
السمع كلامك ثم زدت الى ان ثقل على النفس جوارك وقد امرنا باقصائك الى اقصى
الثغر فبالله الا ما افصرت ولا يبلغ بك زائد المقت الى ان تضيق بك معي الدنيا ،
ورأيتك تشكو لفلان وتتلّم من فلان وما تقولوه عليك وما لك عدو اكبر من لسانك
فما طاح بك غيره فاقطعه قبل ان يقطعك »

ولم يكف عبد الرحمن هذا الخلاف مع انصاره ودعاتهم دولته فقد اخذ ابناه أسرته
وأقاربه يدبرون له المؤامرات ويحكيون له الدسائس ، وكان عبد الرحمن لما اصبح سيد
اسبانيا قد استدعى اقاربه من اكناف آسيا واطراف افريقية وأكرم وقادهم وأغدق
عليهم العطايا وخلع عليهم ابراد المجد وكان يقول « ان أعظم ما أنعم الله تعالى به عليّ
بعد تمكيني من هذا الامر القدرة على ايواء من يصل اليّ من اقاربي والتوسع في
الاحسان اليهم وكبري في أعينهم واسمائهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من هذا السلطان
الذي لا منة عليّ فيه لاحد غيره » ولكن هؤلاء الامويين كان يستفهم الطموح الذي
تمتاز به تلك الاسرة وكانوا يشعرون بالغضاظة لاحتمال نير حكم عبد الرحمن المطلق
وكان اول من ائتمر به منهم عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدي واشترك
معه في المؤامرة عبيد الله بن ابان بن معاوية بن هشام وهو ابن اخي الداخل فوشى
بهما مولى لعبيد الله بن ابان وكان قد آتمهم بمساعدتهما على ما هما به من الخلاف ابو عثمان
كبير الدولة فقتلها عبد الرحمن ولم ينل ابا عثمان ما نالها لعدم ثبوت التهمة وذلك سنة
١٦٣ هـ . وفي سنة ١٦٧ دبر ابن اخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ثورة وسعى في طلب

الامر لنفسه وساعده هذيل بن الصميل الذي كان يحاول ان يثأر لايه ولكن خبر
تدبيرها انتهى الى الامير فبعث في طلب المغيرة وهذيل وكل من اراد ذلك الرأي
فاستنطقهم فأقروا فأمر بقتلهم ، ودخل بعض مواله على اثر قتله ابن اخيه المغيرة وهو
مطرق شديد الغم ، وأدرك مولاة ما يدور بنفسه من الحواطر وما يتساقط بها
من الاشجان فقد جرحت كرامته وأهدرت هيته للمرة الثانية وأصيب في معقل
جبه وناحيته العاطفية اللينة فدنا منه في صمت وحذر ، وبعد فترة سكون رفع
عبد الرحمن رأسه وقال « ما عجبى الا من هؤلاء القوم سعيانا فيما يضعونهم في مهاد
الامن والنعمة وخاطرنا فيه بحياتنا حتى اذا بلغنا منه الى مظلونا وبسر الله تعالى
اسبابه اقبلوا علينا بالسيوف ، ولما أويناهم وشاركناهم فيما افردنا الله تعالى به حتى
أمنا ودرت عليهم أخلاف النعم هزوا اعطافهم وشمخوا بانفهم وسموا الى العظمى
فنازعونا فيما منحنا الله تعالى نخذلهم الله بكفرهم النعم اذا اطلعنا على عورتهم فعاجلناهم
قبل ان يعاجلونا وأدى ذلك الى ان ساء ظننا في البريء منهم وساء ايضاً ظنه فينا
وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه ، وان اشد ما عليّ في ذلك اخي
والد هذا المخذول فكيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه ؟ ام كيف
يجتمع بصري مع بصره ؟ اخرج له الساعة فاعتذر اليه وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها
اليه واعزم عليه في الخروج عني من هذه الجزيرة الى حيث يشاء من بر العدو »
قال فلما وصلت الى اخيه وجدته أشبه بالاموات منه بالاحياء فألسته وعرفته ودفعت
له المال وأبلغته الكلام فتأرّه وقال « ان المشؤوم لا يكون بليفاً في الشؤم حتى يكون
على نفسه وعلى سواه وهذا الولد العاق الذي سمى في حنفة قد سرى ما سمى فيه
الى رجل طلب العافية وقع بكسر يات في كنف من يحمل عنه معرفة الزمان وكله

ولا حول ولا قوة الا بالله لا مرد لما حكم به وقضاه « ثم ذكر انه آخذ في الحركة الى بر العدو ، قال ورجعت الى الامير فأعلمته بقوله فقال « انه نطق بالحق ولكن لا يخدمني بهذا القول عما في نفسه والله لو قدر ان يشرب من دمي ما عفت عنه لحظة فالحمد لله الذي اظهرنا عليهم بما نوبناه فيهم واذلم بما نووه فينا »

وكان عبد الرحمن في مستهل حكمه يقعد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل اليه من اراده من الناس فيصل الضعيف منهم الى رفع ظلامته اليه دون مشقة وكان من عادته ان يأكل معه من اصحابه من ادرك وقت طعامه ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه ، وكان يحضر الجنائز بنفسه ويصلي عليها ويصلي بالناس اذا كان حاضراً ويعود المرضى ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم الى ان حضر يوماً في جنازة فتصدى له في منصرفه رجل متظلم سامي وقاح ذو طارضة فقال له « اصلح الله الامير ان قاضيك ظلمني وانا استجيرك من الظلم » فقال له عبد الرحمن « تصدق ان صدقت » فد الرجل يده الى عنانه وقال « ايها الامير اسألك بالله ما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بانصافي فانه معك » فوجم الامير والتفت الى من حوله من حشمه فرآهم قليلاً ودعا بالقاضي وامر بانصافه ، فلما عاد الى قصره كله بعض رجاله ممن كان يكره خروجه وابتذاله فيما جرى فقال له « ان هذا الخروج الكثير اتقى الله تعالى الامير لا يجمل بالسلطان العزيز وان عبون العامة تخلق تجلته ولا تؤمن بوادهم عليه فليس الناس كما عهد » فترك من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل ووكل بذلك ولده هشاماً ، والواقع ان عبد الرحمن حاول في اول ولايته ان يستصفي ود رعيته ولكنه يئس من ذلك في النهاية وآثر ان يكون مرهوباً على ان يكون محبوباً وهكذا كان عبد الرحمن يشعر بانه انتصر على الاجسام والظواهر ولكنه لم يغز القلوب ولم يأسر

الارواح وكان في ايامه الاخيرة سليماً من اصدقائه الذين قاسموه عهوده الماضية وذكرياته
الساففة، وكان يحد عزاء وسلوى في اقتطاع جزء من وقته اليومي للاشراف على انجاز
بناء جامع قرطبة الكبير ثم بدأ يشعر بانحلال قوته وقرب يومه وكان يؤلمه ان يمضي
به الموت قبل ان يتم انتقامه من بني العباس وقد كان اشاع في سنة ١٦٣ هـ . الرحيل الى الشام
لانزاعها من بني العباس وحالت دون ذلك الثورات ولعل هذا الرجل الذي تمود
الكفاح ومقارعة الحوادث كان يحز في نفسه ان يقهره الموت وبسكت نأتمه وفي ربيع
الآخرة سنة ١٧٢ هـ غابت شمس حياته وهدأت حركته الدائبة واستراح جسمه الذي تعب
في مراد نفسه الكبيرة . وقد كانت هذه الروح الهائمة الفلقة تسكن في مسلاخ انسان
اصهب خفيف العارضين بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم له ضفيران اعور اخشم
لكن عور وفي بدمته لا عور شانه ولا قصر

Handwritten text in Arabic script, mostly illegible due to fading and a large tear on the left side of the page.

عبد الرحمة الفنان

شاعريته — قدرته الخطائية —
جوانب اخرى لحياته الفنية

يحدث من حين الى حين ان احد النوادر الافذاذ الذين أحرزوا السبق وحازوا
البطولة في احد ميادين الجهاد الانساني ودوائر النشاط الفكري يحاول ان يجرب قوته
في ميدان آخر ، وقد تكون المحاولة خالية من كل اهمية سوى اهمية انها تحمل اسمه
وتطبع بطابعه ليكسبها ذلك تأثيراً عجيبياً وجاذبية مدهشة ، فاذا بدا لاحد كبار
المصورين ان يقرض شعراً او يعالج كتابة قصة او تدييج بحث تشوقنا الى مطالعة
اشعاره والاستمتاع بقصته ومدارسة بحثه ، واذا حاول احد مشاهير الشعراء
ان يعزل القلم ردحاً من الزمن ويحمل ريشة المصور وجلس الى اللوحة تسابقنا
الى رؤية الصور التي رسمها ريشته ونتعجبها قريحته ، وتقدمنا اليها النقاد والباحثون
ليتأملوا هذه الاعجوبة ويحاولوا حل هذا اللغز ، وتكون الجاذبية أعظم والتلهف أقوى
اذا تباعدت الميادين واختلفت السبل ، فمئذ ما ينظم احد القواد البارزين قصيدة او
او عند ما يؤلف ملك من الملوك رواية يتسابق هواة العجائب وغير هواها لمشاهدة
هذه الطرفة

ولقد كان لفرديريك الاكبر أشعار لم تكن من جيد الشعر ولم يكن حظه فيها من

النوفيق كبير دلسكن وثوبها من مقوله الماسي وكونها واجهت عينه التي رعت حرب
سبع السنوات في اوروبا أكسبها أهمية عالية ، وعرائس الشعر لا تفرهن التيجان
ولا يرهبن أبهة الملك وضخامة السلطان فمن ييخزن على الملوك بنفحاتهن مما جعل
فردريك الاكبر أضحوكة للمهكم الاكبر فولنير وما جعل الخليفة المستعين هدفاً
لسخرية حاشيته . ومن السهل ان يتصور الانسان شدة حرص الامراء والملوك على
ان زوى لهم كلمات ويكون لهم شرف فانهم يعلمون ان يدناً من الشعر أبقى على الدهر
من ملائكة المريض وانه سيروى يوم ينسى أمرهم ويطوى ذكرهم فكهم من فأنجين
كبار ملائوا جنبات زمانهم جلجلة ودويًا وأفعموا قلوب معاصريهم حزناً وسروراً ثم
انطلقت شهرتهم وخفت صوتهم ولم ترد عنهم طادية الفناء مسالحهم وسراياهم وكراديسهم
الحاشدة ، وكهم من مسعري ثورات وخالقي دول قد سحب النسيان عليهم أذياله فلا
يعرف من أخبارهم شيء ، وإنما القوة الباقية في الحياة هي قوة الفكرة ، والمفكرون
هم الذين يحكمون الدنيا بلا جيش ولا صولجان ولا تاج مرصع ، فهم الملوك غير المتوجين
وهم الغزاة بلا سيف ولا مدفع ، وملوك الدنيا وقيصرة الارض كانوا يعلمون ذلك
رغم أنوفهم السماء ومكانتهم السامقة

ومن أمثلة هؤلاء المظالم الذين جربوا قوتهم في ميدان غير الميدان الذي أكسبهم
الذكر الباقي والمجد التالد عبد الرحمن الداخل ، فمنح لا نستطيع الا ان نعجب عند
قراءة الاشعار التي جادت بها قريحة هذا الجلاد الرهيب والسفاح المبيح لان
أساس الشاعرية هو سهولة استعراض الحالات النفسية المتعددة ومعالجة الاحساسات
المتغيرة من طريق التجربة او من طريق التخيل وقل ان يمتاز الشاعر بالتزام
سطه او الثبات على شيء وهو على الدوام مستطار الوجدان مستفز العاطفة ،

فالشاعر يجمع المناقضات وملتي الغرائب المتباعدات وقد وصف لنا جيتي بشاعريته
الناضجة وقدرته الخالقة في رواية تأسو هذين الطرازين من الناس ، طراز رجل
العمل وطراز الشاعر، فصور الأول رجلاً مائل الاغراض محدود القصد متزن الملكات ،
وصور الثاني رجلاً عاجز الارادة تلعب به أهواؤه وتستعبده عواطفه فهو يسير في الحياة
على غير هدى لا يعرف له غاية ويفر من مواجهة الحياة الى أحلامه المضبوطة وآماله
المزدهرة. وكما كان الشاعر أقرب الى الممثل منه الى الخطيب ارتفع في ذروة الشعارية
وحلق في سماواتها ، لان الممثل ينطلق في تمثيل دوره بلا مراقبة للحضور وهو في
ذلك عكس الخطيب الذي تظهر براعته في استجلاء قوس الحاضرين والنفاذ الى
اعماقهم ومعرفة مواطن التأثير فيهم واستهواء ألبابهم ، والشاعر الكبير يناجي نفسه
بشعره كما قال أحدهم

وشأن مثلي ان يرى خالياً بنفسه يبحث عن نفسه

وكما أخلص في تلك المناجاة صدق شعره وسما وحيه ، وتفكيره في تأثير شعره على
الناس يفسد شاعريته وينقص نصيبها من الصدق ، كما ان الممثل اذا أسرف في مراقبة
النظارة تمزقت حركاته واضطرب تمثيله وأسف وحيه وبدا عليه التكلف الممجوج ،
فالشمر إذن سبيل الوحدة ومناجاة النفس والتحدث اليها ، وأصدق الامم شاعرية
هي الامم التي تغلب عليها النزعة الفردية والاكتفاء بالنفس والاعتداد بها ، أما الامم
التي تقشو فيها المجتمعات وينمحي فيها الفرد في غمار الجماعة ويظل دائماً يقرأ من
نفوس معاصريه اكثر مما يقرأ من صفحات نفسه وتكون اجتهاداته بالناس اكثر من
خلواته بنفسه فهي أمم البلاغة والنصاحة ولكنها ليست أمم الشعارية العميقة
والفلسفات العالية . ومن ثم منشأ شاعرية الانجليز وفلسفة الالمان وبلاغة الفرنسيين

ورجل العمل يجمع شوارد افكاره وعواذب خواطره في ناحية واحدة ويصب كل جهوده في تيار واحد ، وهو يعيش في الحياة العملية الزائلة المتقلبة ويستمسك بها ولا يسكن الى جانب منابع العواطف الابدية ولا يسمو الى الافكار الخالدة ، ويسير من الحياة في موكب من انتصاراته وبشارت نجاحه ، ولا يبطل النظر الى الماضي لان الحاسة التاريخية مرقلة لسيره ، وكثرة التلفت الى الماضي تصاحب الفاشلين في الحياة المغلوبين فيها على امرهم لان من عادة المحزون ان يتذكر ، ورجل العمل لا يحفل كثيراً بالمستقبل ولا يطرز حواشيه بأضواء الاحلام وانما شأنه ان يعيش في حاضره ويتعلق به ويحرص عليه ، وهذه هي سمة المقدرة العملية والكفاية الدنيوية فهو لا يعمل على مصارعة مشكلات الفكر وانما يتناول حاضره ويحرص عليه الحرص كله ويحاول ان يتشغف ويتصره ولا يبقى فيه بقية ، وقد كان الامويون رجالاً عمليين دنيويين وكانوا في الجاهلية اصحاب تجارة وفي الاسلام انتزعوا الملك بالحقبة والدهاء والمصيبة المتأسكة وطالجوا صناعة الحكم ، ومن كثر نصيبه من الحياة العملية قل نصيبه من الحياة الشعرية سليمة الوحدة ، ولكن الروح الشعرية الغنائية التي كانت مستأثرة بالامة العربية واكبار الامراء للشعراء وعقد المجالس لسماهم واتخاذ الشعر للدعاية وتسجيل المناقب كان يجعل الشعر فرعاً من مشاغلهم السياسية ومادة في برنامجهم العملي ، وكانوا اذا نبغ فيهم شاعر جاء شعره صورة من نفسياتهم الحسية المتهالكة على شهوات الجسم ومناعم اللذات وأطايب العيش فلا تلمح فيه افراح الروح الداخلة او احزانها الحفية ولا تتبين اثر الروح الدينية المتغلغلة وعمق الشعور وتلك النظرات الشاملة الموحية التي تميز كبار الشعراء ، ف شعر يزيد بن معاوية او شعر الوليد بن يزيد اكثره من الغزل الطافح بالشهوة والتهاك على المتعة وليس بروي لك عن احساس

عميق شامل وان كان لا يخلو من جمال فن ورقة نظم وبعد عن التكلف
وعبد الرحمن الداخل وليد ايام الثورات العاصفة والذي نشأ مثلما ينشأ ابن الملاح
فوق الزاخر المزج وعاش عمره فوق غوارب الهزاهز والثورات بصارعها وتصارعه
لا تشم من شعره عبق الوحي وشفعة القدس ولا تشم فيه بروق الافكار البعيدة
الحافظة وأضواء النظرات المترامية الشاملة . ولكن المصائب التي حلت بقومه وسارت
بها الاخبار وتحدث عنها الركبان عمقت نفسه وأفسحت خياله وحركت فيه عواطف
الحقد والكراهة من ناحية ولكنها من ناحية اخرى أطلت به على جانب من
جوانب الحياة الشعرية لان مارآه من تقلب الحظ وتداول الايام وما قاماه من
الآلام بصره رواية الحياة البشرية في فصولها المختلفة وجعله يعرف الشقاء ويحس
الآلم ، فن رقيق شعره تلك الايات التي ارسلها الى اخته بالشأم ويقول فيها

أيها الراكب الميمم أرضي أقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما تراه بأرض وفؤادي ومالكه بأرض
قدر الين يننا فافترقنا وطوى الين عن جفوني غمضي
قد قضى الدهر بالفراق علينا فمسي باجتماعنا سوف يقضي
وأبصر نخلة بالرصافة فارتسم له خيال نشأته وتمثلت له اوقات صفائه ومجالس آتراه

وسائف ملاحه فحن الى عهوده الماضية وحجرت قريحته بهذه الايات : —

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تنامت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شيهي في التقرب والنوى وطول ابتعادي عن بني وعن اهلي
نشأت بأرض انت فيها غريبة فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غواصي المزن في المنتأى الذي يسبح ويستمرى السماكين بالوبل

وينسب إليه بعض المؤرخين الايات الآتية ويمزوها بعضهم الى عبد الملك بن عمر
المرواني ولكنها اشبه بالشعر المنسوب للداخل

يا نخل انت فريدة مثلي في الارض نائية عن الاهل
تبكي وهل تبكي مكمة عجباه لم تحيل على جبل
ولو انها عقلت اذن لبكت ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت واخرجني بغضى بني العباس عن اهلي

ولما استقامت له الدولة بلغه عن بعض من اطانه انه قال « لولا انا ما توصل لهذا
الملك ولكان منه ابد من العبوق » وان آخر قال « سعدة اطانه لا عقله وتديره »
فاخذته عزة الغلبة ونظم هذه الايات : —

لا يلق تمت علينا قائل لولاي ما ملك الانام الداخل
سعدى وحزمي والمهند والقنا ومقادر بلغت وحال حائل
ان الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا بفعلوا أروم تدير البرية غافل
ويقول قوم سعدة لا عقله خير السعادة ما حاما العاقل
أبني امية قد جبرنا صدعكم بالغرب رغماً والسعود قبائل
ما دام من تسلي امام قائم فالملك فيكم ثابت متواصل

وحكى ابن حبان ان جماعة من القادمين عليه من قبل الشام حدثوه يوماً في بعض
مجالسهم عنده ما كان من التمر بن يزيد بن عبد الملك أيام محنتهم وكلامه لعبد الله
ابن علي بن عبد الله بن عباس الساطي بهم وقد حضروا رواقه وفيه وجوه المسودة من
دعاة القوم وشيعتهم راداً على عبد الله فيما أراقه من دماء بني امية وسلبهم والبراءة منهم

فلم تردعه هيئته وعصف ربحه واحتفال جمعه عن معارضته والرد عليه بتفضيله لاهل
 بيته والذب عنهم وانه جاء في ذلك بكلام غاظ عبد الله واغضبه وأعصه بريقه وطاجل الغمر
 بالحنف فمضى وخلف في الناس ما خلف من تلك المعارضة في ذلك المقام وكثر القوم
 في تعظيم ذلك فلم يسترح الامير عبد الرحمن لهذا الافراط في امتداح الغمر وكأنه
 احتقر ذلك الذي كان من الغمر في جنب ما كان منه في الذهاب بنفسه عن الاذعان
 لعدوهم والاقب من طاعتهم والسعي في اقتطاع قطعة من مملكة الاسلام لتجديد عهدهم
 المدارس وقام عن مجلسه وصاغ هذه الايات بديهة : —

شنان من قام ذا امتعاض فر ما قال واضمحلا
 ومن غدا مصلتا لعزم مجرداً للعداة فصلا
 فجاب قفراً وشقاً بجرأ ولم يكن في الانام كلا
 فبز ملكاً وشاد عزاً ومنبراً للخطاب فصلا
 وجنّد الجند حين أودى ومصّر المصر حين أخلى
 ثم دعا اهله جميعاً حيث اتأوا ان هلم اهلا
 فجا هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلا
 فقال امناً ونال شعباً ونال مالا ونال اهلا
 ألم يكن حق ذا على ذا اعظم من منعم ومولى

وكان خارجاً الى الثغر في بعض غزواته فوَقعت غرانيق في جانب من عسكره
 واتاه بعض من كان يعرف كلفه بالصيد يعلمه بوقوعها وبشبهه بها ويحضه على اصطيادها
 فأطرق عنه ثم جاوبه : —

دعني وصيد وقع الغرانيق فان همي في اصطياد المارق

في نفق ان كان او في حالق اذا التظت هواجر الطرائق
 كان لفاعي ظل بند خافق غنيت عن روض وقصر شاهق
 بالفقر والايطان في السرادق فقل لمن نام على التمارق
 ان العلى شدت بهم طارق فاركب اليها تبج المضائق
 او لا فانت أرذل الخلائق

ومن شعره في حيوة بن ملامس الحضرمي من جند حمص النازلين اشيلية وكان
 صديق عبد الرحمن وله في نفسه منزلة ثم ثار عليه بعد ذلك وقتل في اثورة
 فلا خير في الدنيا ولا في نعيمها اذا غاب عنها حيوة بن ملامس
 اخو السيف قاري الضيف حقاً يراها عليه ونافي الضيم عن كل بائس
 وكانت قدرته في الخطابة لا تقل عن براعته في الشعر ، فقد حكى ابن حيان ان
 عبد الرحمن لما أذن له يوسف صاحب الاندلس واستقر ملكه استحضر الوفود الى قرطبة
 فأتوا عليه ووالى القعود لهم في قصره عدة ايام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام
 سرهم وطيب نفوسهم وذلك بعد ان كساهم واطعمهم ووصلهم فانصرفوا عنه مجبورين
 مغتبطين يتدارسون كلامه ويتهاقون بشكره ويتهاقون بنعمة الله تعالى عليهم فيه ، وفي
 بعض مجالسهم هذه مثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه فقال « يا ابن
 الخلائف الراشدين والسادة الاكرمين ، اليك فررت وبك عدت من زمن ظلوم ودهر
 غشوم قلل المال وكثر العيال وشعث الحال فصير الى ندادك المآل وانت ولي الحمد والمجد
 والمرجو للرفد » فقال له عبد الرحمن مسرعاً « قد سمعنا مقالتك وقضينا حاجتك وامرنا
 بمونك على دهرك على كرهنا لسوء مقامك فلا تعودن ولا سواك لمثله من اراقة ماء
 وجهك بتصريح المسئلة والالحاف في الطالبة واذا ألم بك خطب او حزبك امر فارفعه

الينا في رقعة لا تعدوك كما نستر عليك خلتك ونكف شمات الدعوى عنك بمد رفعت لها
الى مالسك ومالكنا عز وجهه باخلاص الدماء وصدق النية « وامر له بمجازة حسنة
وخرج الناس يتعجبون منه ومن حسن منطقهِ وبراعة أدبهِ وكف فيما بعد ذوو الحاجات
عن مقابلته بها شفاهاً في مجلسه »

ومن جوامع كله قوله لما انحى اصحابه على اصحاب الفهرى بالقتل يوم هزيمتهم في
معركة صحراء الصاره « لا تستأصلوا شأفة اعداء ترجون صداقتهم واستبقوهم لاشد
عداوة منهم » يشير الى استبقائهم ليستعان بهم على اعداء الدين، ولما اشتد الكرب بين يديه
يوم الصارة ورأى شدة مقاساة اصحابه قال لهم « هذا اليوم هو اس ما يبنى عليه اما ذل
الدهر واما عز الدهر فاصبروا ساعة فيما لانتهون ترجوا بها بقية اعماركم فيما تشتهون »
وكان عبد الرحمن بن مجرور النثر بارع الترسل ، روى ابن حبان انه وقع الى سليمان
ابن يقظان الاعرابي على كتاب منه سلك به سبيل الخداع « اما بعد فدعني من
معاريض المعاذير والتعسف عن جادة الطريق لتبدأ الى الطاعة والاعتصام بمجرب
الجماعة او لازوين بناتها عن رصف المعصية نكالا بما قدمت يدك وما الله بظلام للعبيد »
وكان عبد الرحمن لشغفه بالادب وتضلعه من فنونه يتخذ الثقافة الادبية معياراً
لقيمة الاشخاص، فقد كان كثيراً ما يسأل عن ابنه سليمان وهشام فيذكر له ان هشاماً
اذا حضر مجلساً امتلاً ادباً وتاريخاً وذكر آلام الحرب ومواقف الابطال وما شابه
ذلك واذا حضر سليمان مجلساً امتلاً سخناً وهدياناً فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصغر
سليمان ، وقال يوماً لهشام لمن هذا الشعر

وتعرف فيه من ابيه شمائلًا ومن خاله او من يزيد ومن حجر
ساحة ذا مع برّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا اذا صحا واذا سكر

فقال له هشام « يا سيدي لا مريء الفيس ملك كنده وكانه قاله في الامير اعزه الله »
 فضمه اليه استحساناً بما سمع منه وأمر له بإحسان كبير وزاد في عينيه ، ثم قال
 لسليمان على افراد لمن هذا الشعر وأنشده البيتين فقال « لعلهما لاحد أجلاف العرب
 أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الاعراب » فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر ما بين
 الاثنين من المزية وكان ذلك من أقوى الاسباب التي جعلته يتخطى ابنه سليمان بكر
 أولاده ويرشح ابنه هشاماً للولاية بعده وهو أصغر من سليمان سنناً وقد وضع هذا
 الامير المثقف الفني النزعة أساس نهضة الادب بالاندلس ووثبة التفكير الفلسفي بها
 وكان يقرب منه الشعراء فتحبهم عنايته بهم على المباراة في السبق والاجادة ، وكان
 ابو الخشي شاعر الاندلس في أيامه مدح سليمان ابنه بشعر ونوهم عليه فيه انه عرض بهشام
 أخيه وكانت بينهما مباحدة ومناقسة فتعصب لهشام فسمل عينيه فقال في العمى
 شعراً حسناً ثم قصد به عبد الرحمن فأنشده اياه فرق له واستعبر ودحا بألفي دينار
 فأعطاء وضاعف له دية العينين وهو الشعر الذي في أوله

خضعت أم بناتي للعدى ان قضى الله قضاءً فضى
 ورأت أعمى ضرباً أما مشبه في الارض لمس بالعصا
 فاستكانت ثم قالت قولة وهي حرى بلغت منى المدى
 ففوادي فرح من قولها ما من الادواء داء كالعمى

وكان عبد الرحمن بغير عاصمه بشايب كرمه ويسبغ عليها ضافي رطايته وكان
 بها فخوراً مدلاً فعمل على تجميلها وتنضير نواحيها فابتنى بها الرصافة تشبهاً برصافة جده
 هشام واتخذ لها قصرأ رفيع العمار طلي الشرفات يرى المطل من ذراه المناظر على
 مسافات شاسعة ، ودحا حوله الحدائق الغلب والبساتين المزهرة ، ونثر الدوح المورق

والسرح الباسق وأجرى الجداول المترققة ونقل إليها غرائب الفروس وكرائم
الشجر ونوافح الازهار من كل جهة وغرس بيده فيها نخلة أحضرها من الشام ليستعيد
ذكرى نشأته ومدرج طفولته فكانت أول نخلة غرست في أرض اسبانيا، وبني
المسجد الجامع وأتفق فيه ثمانين الف دينار ومات قبل تمامه وفي بنائه جامع قرطبة
يقول أحد الشعراء

وأبرز في ذات الآله ووجهه ثمانين ألفاً من الحين وعسجد
وأنفقها في مسجد زانه التي وقر به دين النبي محمد
رى الذهب الوهاج بين سموكه بلوح كلمح البارق المتوقد

وكانت النزعة الفنية المستولية عليه نحثه على استحداث المنشآت الإصلاحية فأعاد
تمهيد الطرق الرومانية تيسيراً للمواصلات ونظم البريد السريع وبني دار لصك العملة
وقسم شبه الجزيرة سنة أقسام لكل قسم منها حاكم عسكري يعينه واليان وستة من
المستشارين لإدارة الشؤون الأقل في الأهمية يساعدهم على أداء ذلك رهط من القضاة
وجاعة من الكتاب وكانوا يرسلون التقارير عن الحوادث والماجريات إلى ديوان قرطبة .

تفويهم وتقدير

عزيمة عبد الرحمن - وصف سياسته -
تقدير المنصور لعبد الرحمن - وصف المؤرخ
ابن حيان لعبد الرحمن - تأثير عمله

عبد الرحمن الداخل من الاشخاص النوادر الذين فرضوا ارادتهم على عصرهم
وصبغوه بلونهم وصلوه بصقلهم ، ولم يكن عبد الرحمن صاحب سحر ولا رب معجزات
وانما كان رجلاً جلد الجوارح متسعر الاعصاب دائم النشمير والكدح ، لا يستزل
النصر من السماء ولا يستعين عليه بما وراء الطبيعة وانما يستخرجه من هذه الارض
المعجوز ، فهو يعمل في الحديد والحشب والاحجار لا يتطرق اليه ضعف ولا يدركه
وهن وهو في مضائه كالعوامل الطبيعية في صمتها وحتمها ، ومثل هذا الرجل الحديدي
الارادة الصبور على ما لا يحتمله الناس تتضامن له المفارق وتراجع امامه العقبات
وهو يمضي في طريقه قدماً عليماً بغايته عارفاً بوسائله لا تتنازعهُ الوسواس ولا تفضل
حكيمه الترهات ولا يتحيف رأيه الاسراع ، يقدم الرأي على الشجاعة ويرسم الخطة
قبل الاقدام ويضحى في سبيل تحقيق اغراضه بكل شيء فلا المال ولا الرجال ولا
المواطن تقف في سبيله ، وهو لا يبالي بهناء العيش ورغد الحياة لان المجد احب
الى نفسه من الحياة ونعيمها فالحياة عنده ليس اساسها « الرغبة في الحياة » كما يقول
شوبنهاور وانما اساسها « طلب القوة » كما يرى نيتشه ، وهو لا يحب ان تسبطر عليه

الحوادث وتصرفه الاقدار وانما يحاول ان يعلو فوق عيائها ويملك عنها
 ومن السهل ان تعي على عبد الرحمن سياسته وان تتخطى رقاب القرون وترفع
 حجب الاعوام لتوجه اليه اللوم والتثريب على ما اظهر من فسوة وجبروت ، ولعل
 الاصعب من ذلك والادق هو ان تصور الظروف القاسية التي احاطت به والمواقف
 الحرجة التي عرضت له ، ولم يكن عبد الرحمن زاهداً في الحياة كارهاً للدينا « صوام
 هاجرة قوام ديجور » حتى ينفذ يده من مشكلاتها التي لا تحل الا بمقارفة الشر والتسور
 على الجريمة ويأوي الى صومعة يستمتع بلذة الصوم ومحاسن الزهادة ويجهد للوصول
 الى « الرفانة » حيث تهدأ الاشواق وتمحى الرغبات وانما كان امويًا من فرعه الى
 قدمه يريد الدنيا ويحرص على النجاح والغلبة بالشجاعة او بالحيلة او بكليهما وقد علمته
 طول خبرته بأحوال العرب والبربر ان كبرياء ابناء الصحراء والحلوات الفيح لا تلام
 ما يستلزمه الملك من السلطة المستفزة المركزية والمكانة الوطيدة فلم يتردد في ان يقطع
 بصارمه البتار كل يد تمتد الى ملكه بسوء ويخمد كل نزوع الى الحرية وكوّن لذلك
 جيشاً نظامياً من الموالي المجلوبة من أسواق الرقيق ومن البربر الذين اصطنعهم ليسترده
 في الشدة ويلوذ به عند انتفاض الرعية ، وكانت سياسته المترددة بين القسوة والشدة
 والحيانة والقدرة ملائمة لاحوال عصره ، وكان التحدي الدائم لسلطته يوقظ عقاربه
 الراقدة ويستوجب منه الصرامة ويستنز النعمة ، وكان موقفه بعد اخذ الثورات
 الكثيرة وسحق قوة المتألمين عليه الساعين في هدمه يفري بالامعان في القسوة
 والاسترسال في الاستبداد ، ولم يكن عبد الرحمن بطبيعته مستبدًا لانه رجل سامي
 المدارك واسع مدى التفكير طالي الثقافة ، فلما فرضت عليه الظروف الاستبداد فرضاً
 لم يكن استبداده من ذلك النوع الاصح القائم على الغاظة والحلافة او من ذلك النوع

الاجوف القائم على انكاس الطبيعة والتواء الخلق او نخب القلب والشعور بالنقص والمعجز
وانما كان استبداد الرجل السديد الرأي القوي التحيز الذي يفهم الامور على حقيقتها
ويحاول ان يكيف سياسته وفق مقتضياتها ويركب الثمر اذا لم يجد عنه محيصاً ، وقد كان هذا
المظهر الحسن الذي اضطر عبد الرحمن الى الظهور به في حياته العامة يبدو متناقضاً التناقض
كله مع مظهره في حياته الخاصة ، فقد كان في علاقته الخاصة رفيق العاطفة شفاف الاحساس
محمود الملابس لاصدقائه لا يزدنيه النصر ولا يسكره الاقتدار ولا تميل به الحيلاء
والعجب . فلما وفد عليه وانسوس البربري مع امرأته تكفات التي خبأته في ثيابها
لما كانت تطارده جنود ابن حبيب ، أكرم وقادتها وكان يطيب له وهو في قمة سلطانه
ان يجاذب تكفات البربرية الساذجة الحديث ويتسع صدره لتكاتها اللاذعة
وكان في أول حكمه يخالط رعيته ويسير في الطرقات ويتنقل في أطراف البلاد
ليرى بنفسه حاجة شعبه وبفيض خلال ذلك بره على المحايج ، ولكنه لما استولى عليه
سوء الظن لزم قصره ولم يكن يبرحه الاً مخوفاً بالحرس . وقد غيرت الاحوال الى
حد كبير أخلاق عبد الرحمن الذي كان بطبعه كبير القلب جم العطف . ولا نزاع في
ان مصرع أسرته والعداوة الشديدة التي كان يضمرها له أعداؤه وخيانة أقاربه ونكوص
أصدقائه عن مناصرته وارتبابه في ولائهم له جعلته يرتكب ضرباً من القسوة قلت من
بهاته وشوّهت من صورته مع ما تحمله في ثناياها من مسوغاتها ، ولو ان عبد الرحمن
واجه أحوالاً سمحة لينه وقوماً ديدنهم الطاعة والخضوع للنظام لكان له موقف آخر ،
على ان عبد الرحمن رغم استبداده وطغيانه وخرقه القوانين في بعض الاوقات كان
مستعداً للنظر في شكاوى المظلومين ورفع الظلمة عنهم . وكان على استبداده لا يأتف
من الرجوع الى الحق واستماع النصيحة

روى عنه ابن القوطية انه أمر بقبض ضياع أرطباس — أحد أبناء غيطشة الثلاثة —
وأوجب ذلك انه نظر الى قبته يوماً في بعض غزواته معه وحولها من الهدايا غير قليل
اذ كانت الهدايا تلتفاه في كل محلة من ضياعه ، فنفس ذلك عليه فقبضت منه وصار عند
بني أخيه حتى ساءت حاله فقصد قرطبة واتي الى الحاجب ابن بخت فقال له « استأذن
لي على الامير فاني اتيتك لتودع منه » ، فدخل الحاجب فاستأذن له فأدخله عبد
الرحمن على نفسه فنظر اليه في هيئة رثة فقال له « يا أرطباس ما بلغ بك هاهنا » فقال له
« أنت بلغت بي هاهنا حلت بيني وبين ضياعي وخالفت عهد اجدادك في بلادنا
يوجب ذلك علي » فقال له « وما هذا التوديع الذي تريد ان تودع مني أطلقك تريد
التوجه الى دومة » قال « لا ولكني بلغني أنك تريد التوجه الى الشام » فقال له عبد الرحمن
« ومن يتركني ارجع اليها وبالسيف أخرجت عنها » فقال له أرطباس « فهذا الموضع
الذي أنت فيه تريد ان توطده لولدك بعدك أم تأخذ منه ما تأخذك » قال « لا والله
ما أريد الا ان أوطده لنفسه ولولدي » فقال أرطباس « فغير هذا العمل اعمل فيه »
ثم عرفه بأشياء كان الناس ينكرونها عليه وبينها له فسر بذلك عبد الرحمن وشكره
عليه وأمر له بعشرين ضيعة من ضياعه صرفت اليه وكساه ووصله وولاه القناسة وكان
أول قومه بالاندلس

وقد علم عبد الرحمن أولاده أحسن تعليم وأنشأهم نشأة صالحة وكان يجبرهم على
حضور الديوان لمشاهدة الاحوال وفهم دقائق الامور وكان يوكل اليهم عقد المعاهدات
وإدارة شؤون الحكم ، وقد عبء الطريق لابنائيه ولكنه كان طريقاً حافلاً بالشوك
محفوظاً بالاحزان والفواجع ، وليس في وسع اميران يحكم قوماً مثل العرب والبربر في
عهد عبد الرحمن بنير ذلك الاسلوب القاسي الذي اتبعه مرغماً لانه كان عليه ان يختار

بين الاستبداد والشدّة وبين الفوضى والثورة ، وربما كان الأكثر ملاءمة لمزاج العرب
وغرائز البربر هو ان يتكوّن من القبائل المختلفة في ذلك الوقت شبه جمهوريات كثيرة
تتحد عند الحاجة ضد العدو المشترك وهم المسيحيون في الشمال لان هذه الصورة من
صور الحكم أكثر تمثيلاً مع تقاليد الصحراء كما رأى دوزي ، ولكن مع تقديري
لرأي هذا المؤرخ الكبير أرى ان ذلك لم يكن كافياً لحل العقدة وفض المشكل ، بل كان
يفسح المجال لانطلاق الاهواء العارمة والغرائز الجارحة وما يستتبعه ذلك من فناء قريب
محقق كالحالة السيئة التي استنفذ عبد الرحمن منها الاندلس ومثل الحالة التي ارتدت اليها
بعد انهيار الخلافة الاموية وظهور ملوك الطوائف ، فالمشكلة التي تناول حلها عبد الرحمن
على طريقته أرجح اتنا بعد ان نزن ظروفه ونقدرها من جميع نواحيها تقديراً دقيقاً
لا نستطيع ان نتعلم عليه في ثقة واطمئنان ونهجن خطته ونقبّل رأيه ونزيمه بالخطل
وسوء التدبير

وكان عبد الرحمن في اول ولايته يدعو في خطبة الجمعة لابي جعفر المنصور ولم يثته
عن ذلك ما صنعه العباسيون بقومه لانه كان يعتبر ذلك ضرورة سياسية ، ولما مضى الى
الاندلس عبد الملك بن عمر المرواني اشار عليه بقطع اسمه من الخطبة وذكره بسوء
صنيع بني العباس بيني امية فتوقف عبد الرحمن في ذلك فما زال به عبد الملك حتى قطع
الدعاء له بعد ان خطب باسمه عشرة اشهر ، وما يكشف عن رجاحة عقل عبد الرحمن
انه ظلّ مع ذلك محتفظاً بلقب امير ولم يتناول الى لقب امير المؤمنين وعليه جرى بنوه
بعده فلم يدع احد منهم بامير المؤمنين حتى كان عبد الرحمن الناصر فتسمى بالخلافة ،
ولم يقدم على ذلك عبد الرحمن وهو ابن الخلفاء لعله ان كثيراً من الزعماء الذين
يتربون به الدوائر ويتحينون الفرص لاوثوب عليه سيتخذون ذلك ذريعة لاثارة

شعور الشعب وإيقاظ راقدة الفتنة ، وفضلاً عن ذلك فإن الخلافة العباسية كانت في ذلك الوقت وثيقة البنيان وقد اعترف بها المسلمون جميعهم وخليفة رسول الله واحد لا اثنان. وماذا يضير عبد الرحمن حرمانه من هذا اللقب وفي يده زمام الامور واقليد السلطة. ولم يكن الرجل حريصاً على الالقب والشعار لأنه رجس حقائق موكل بالباب زاهد في القشور ، ولم يتسم من عقبه الناصر بأمر المؤمنين الا حين التاث أمر الخلافة بالشرق واستبد موالى الترك بخلفاء بني العباس وبلغه ان الخليفة المقنتر قتله مؤنس المظفر مولاه وتوارث التلقب بأمر المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحداً بعد واحد

وقد تحدى عبد الرحمن رجلاً عظيماً من معاصريه خضع لسلطانها العالم القديم وهما ابو جعفر المنصور وشارلمان فثبت لهما عبد الرحمن ولم يفوزا منه بطائل وقد أرغهما عبد الرحمن على تقديره والاعجاب به والثناء عليه . فقد روى عن أبي جعفر المنصور انه سأل اصحابه يوماً « من صفر قريش » قالوا « أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الادواء » قال « ما صنعتم شيئاً » قالوا « فماوية » قال « ولا هذا » قالوا « فعبد الملك بن مروان » قال « لا » قالوا « فمن يا أمير المؤمنين » قال « عبد الرحمن بن معاوية الذي نخلص بكيد من سنن الاسنة وظباء السيوف بعب القفر وبركب البحر حتى دخل بلداً أعجبياً فصّر الامصار وجنّد الاجناد وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدييره وشدة عزمه ، ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلالا صعب ، وعبد الملك بيعة تقدمت له وأمر المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرداً بنفسه ، ويبدأ برأيه مستصحباً لعزمه ، فلا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة اسبابه فالتأثر في امر فتى قريش

الاحوذى الفذ في جميع شؤونه وعدمه لاهله ونسبه وتسليه عن جميع ذلك بعد مرتقى

همته ومضاء عزيمته حتى قذف بنفسه في لجج المهالك لا ابتناء مجده »

وروى ابن حبان ان قارلة - شارلمان - ملك الافرنج بعد ان تمس بعبد الرحمن

مدة فأصابه صلب المكسر فمال معه الى المداراة ودعاه الى المصاهرة والسلم فأجابته

للسلم ولم تم المصاهرة لما اتاب صحته من ضعف في أواخر أيامه

وقد وصفه مؤرخ الاندلس الكبير ابن حبان بهذه الكلمات القوية الغزيرة الدلالة

« كان عبد الرحمن راجح الحلم فاسح العلم ثاقب الفهم كثير الحزم نافذ العزم بريئاً من

العجز سريع النهضة متصل الحركة شديد الحذر قليل الطأينة لا يخلد الى راحة ولا

يسكن الى دعة لم ترفع له قط راية على عدو الا هزمه ولا بلد الا فتحه شجاعاً

مقدماً لا بكل الامور الى غيره ثم لا ينفرد في ابرامها برأيه بعيد الغور شديد الحدة

بليغاً مفوهاً شاعراً محسناً سمحاً سخياً وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره »

ووصف سياسته وتأثيره هذا الوصف الدقيق الجامع « لما ألقى الداخل الاندلس

نمراً قاصياً غفلاً من حلية الملك طاطلاً أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم

بالسيرة الملوكية واخذهم بالآداب فأكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة وبدأ

فدوّن الدواوين ورفع الاواوين وفرض الاعطية وعقد اللوية وجند الاجناد ورفع

العماد وأوثق الاوتاد فأقام للملك آتة وأخذ للسلطان عدته فأعترف له بذلك اكابر

الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته ولم يلبث ان دانت له بلاد الاندلس واستقل

له الامر فيها »

ولعل اكبر اثر تركه عبد الرحمن هو أنه باصلاحه السياسي مهد السبيل للنهضة

الادبية وتلك اليقظة الفكرية العظيمة التي ظهرت بالاندلس حتى صارت مدينة قرطبة

توقد سراج العلم والحضارة فتبهر الدنيا واوروبا غارقة في لجم زاخرة من الجهالة
وحتى صارت الاندلس مدرسة يؤمها الاوريون لتلقي مختلف العلوم عن العرب ولولا
مجهود عبد الرحمن لما أتيج المسلمين مواصلة البقاء بالاندلس لمدة قرون ، فليذكر
الذين يعجبهم ادب الاندلس وعلم الاندلسيين وحضارتهم ان اكبر فضل في ذلك
كله يرجع الى عبقرية عبد الرحمن المبدعة الخلافة، وان كان عبد الرحمن قد استباح
الشدة واقترب الآثام فقد يكون له شفع في ضخامة الغاية التي رمى اليها وما نشأ
عنها من خير عظيم للحضارة والرفان وقد يخفف من لومنا له ان رحلته الدنيوية القصيرة
الألقة المظهر المتوجة بأكاليل النجاح كانت في صميمها مأساة مثل حياة سائر
العظماء ورجال القدر الذين زاروا الكون ومروا بالأرض «

تبت المراجع

أخبار مجموعة في فتح الاندلس طبع مجرط سنة ١٨٦٧

فتح الطيب : للمقري المجلد الاول والثاني طبع مصر سنة ١٣٠٢

البيان المغرب : لابن عذارى

افتتاح الاندلس : لابن القوطية

المعجب في تلخيص أخبار المغرب : للمراكشي

الاستفصا في أخبار المغرب الأقصى : للسلاوي

تاريخ العرب في أسبانيا : لدياب بك

تاريخ العرب في أسبانيا : للاستاذ محمد عبد الله عنان

تاريخ العرب في الاندلس : للاستاذ حسن مراد

الدولة الاموية في قرطبة : للاستاذ أنيس زكريا النصولي

نظرات في تاريخ الادب الاندلسي : للاستاذ كامل كيلاني

Spanish Islam. By Reinhart Dozy

The Moors in Spain. By S. Lane Poole.

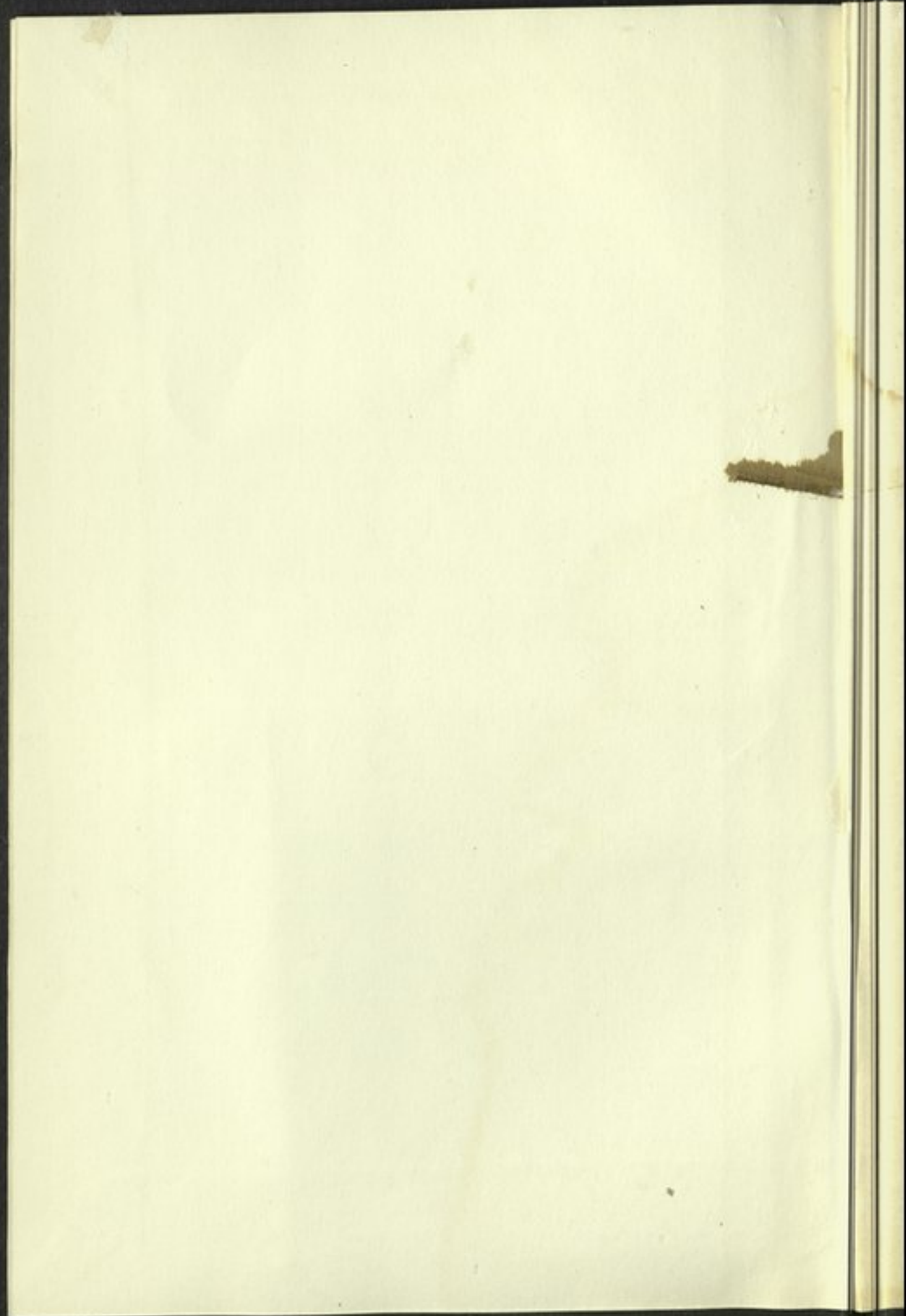
The Moorish Empire in Spain. By Scott.

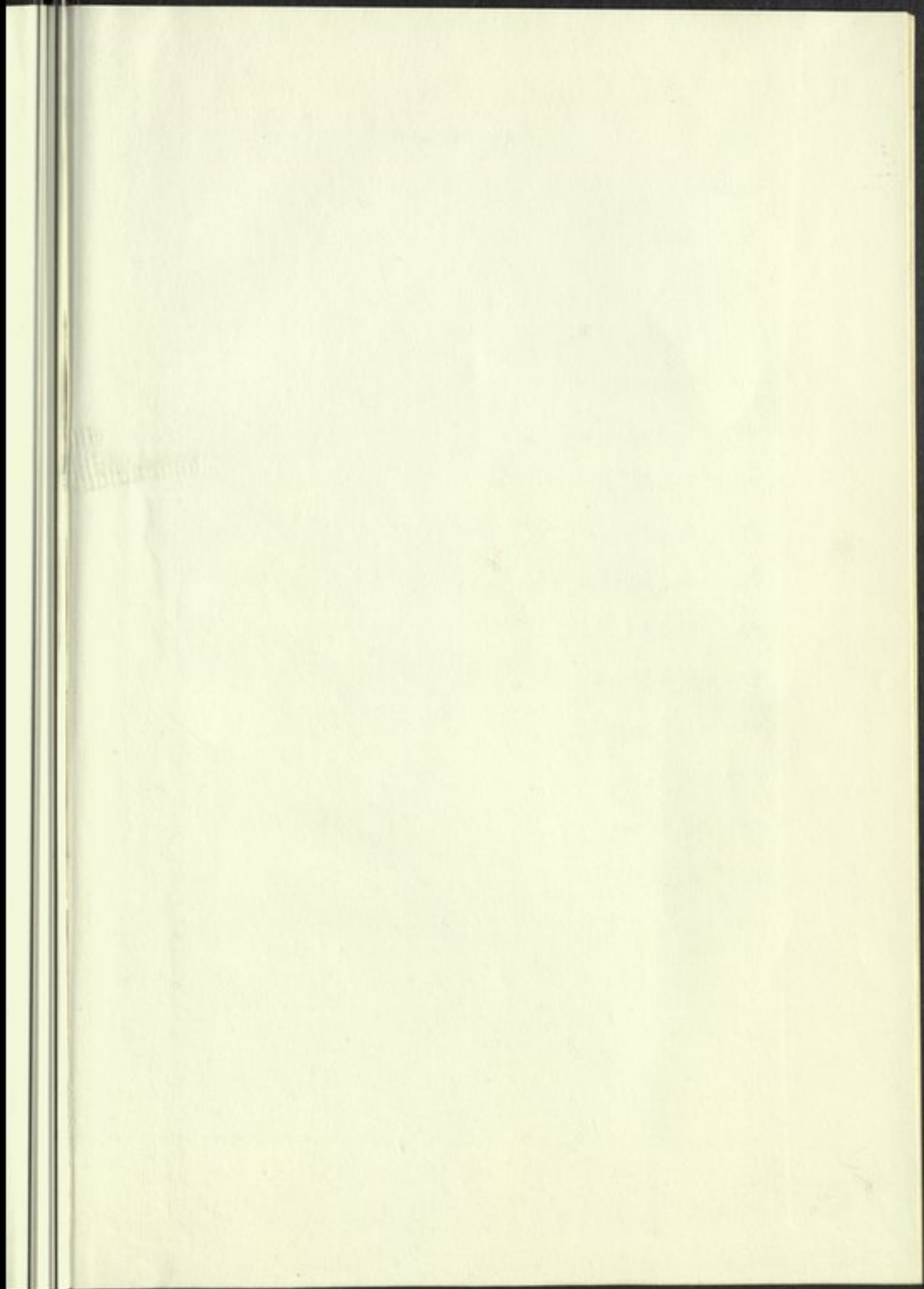
تصويب

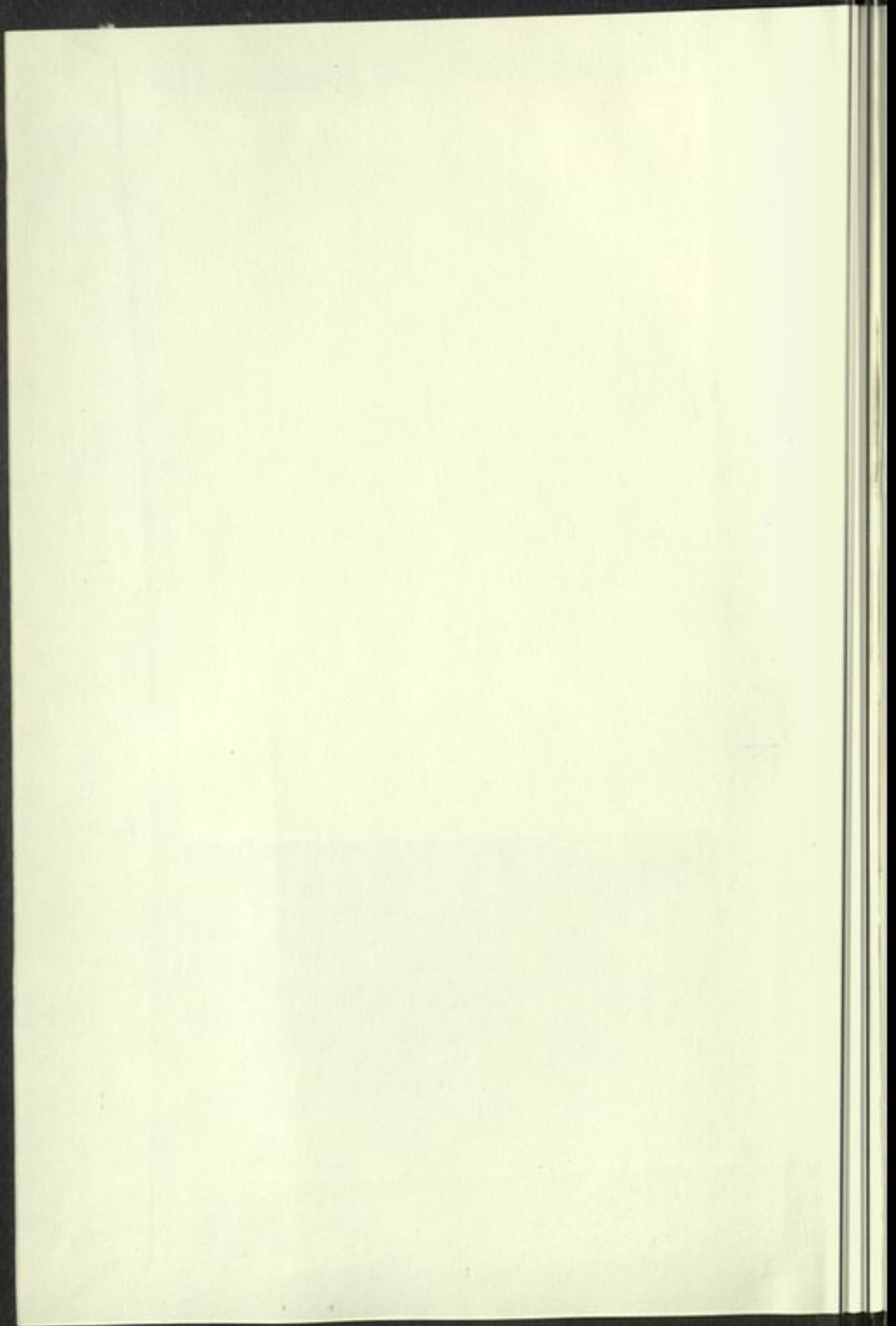
الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
التأثيرات	للتأثيرات	١٢	٨
يستجيبهم	يستجيبهم	٢٠	٣٨
أبو عطاء	أبا عطاء	١٥	٣٩
وامتزج	وامتزج	٤	٤٨
النعير	النعير	٣	٥٦
وشاخ	وشاخ	٩	٦١
قبلا	قبلا	١٤	٦١

فهرست

	صفحة
المدخل	٣
معيار البطولة	٥
الفردوس والجحيم	١١
افتقاد البطل	٢١
أولية عبد الرحمن	٤٣
تبييد الطريق	٥٩
تدمير المعارضة	٦٩
اضطراب واستقرار	٨١
شارلمان في الميدان	٨٩
الايام الاخيرة	٩٧
عبد الرحمن الفنان	١٠٧
تقويم وتقدير	١١٩
ثبت المراجع	١٢٨
تصويب	١٢٩
فهرست	١٣٠







DATE DUE

J. LIB.

~~22 FEB 1979~~

~~JAFET LIB.~~

~~J. LIB.~~

~~8 DEC 1989~~

~~OCT 1989~~

JAFET LIB.

~~JAFET LIB.~~

~~JAFET LIB.~~

~~2 APR 1992~~

~~12 JUN 1992~~

~~JAFET LIB.~~

~~16 APR 1992~~

923.146:A147sA:c.1
كحيلة، عبادة عبد الرحمن
صقر قریش عبد الرحمن الداخل

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01248386

923.146:A147sA

ادهم

صقر قریش

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
31 JAN 74	69-1896	MAY 29 78	A
JUL 4 78	75-1814		
31 JAN 77	BIND		
20. 2. 77	76-1259		
- 6. 6. 79			

923.146
A147sA

